القسمُ الرابِعُ

العربيَةُ الفصحى والتعريبُ

والنظرُ المُعاصرُ فيها

من التعريب كلمة (القِسطاس) فى قوله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

[الإسراء –٣٥].

obeikandl.com

الموضوعُ الأوّلُ

اللّغةُ العربيّةُ الفصحى والتعريبُ – والنّظرُ المعاصرُ فيها[1]

تمهيد (نظرات فى اللغة)

سنُركز نظرتنا فى أربعة أشياء هى:

١ – لم ندرس فى مرحلة الإجازة الجامعيّة فى دمشـق شيئا من «الكتاب» الذى جَمَعَهُ سِيَبَويْهِ من أقوال عدد من علماء اللّغة والنحو، فى مُقدمتهم الخليلُ ابنُ أحمدَ الفراهيديُّ، صاحـبُ العقل الجبّار. ولم ندرس شـيئا منه فى مرحلة الماجسـتيرِ فـى جامعة القاهرة، ولا فى مرحلة الدكتوراة فى الجامعة الأردنيّة. ولعلّ ذلك جارٍ فى كُلِّ أقسام اللّغة العربيّة، فِي البلاد العربيّة.

وفى نظرى أنّ الذى لا يقرأُ – الكتابَ – إنما ينقصه شيءٌ من النّحْوِ، ولو كان مُتخَصِّصا فيه من بين فروع اللّغة العربيّة الأُخرى. لأنه يطلعك على اللّغة والنّحو معا. أسلوبه أسلوب لغوى سليم، ونحوُهُ فيه تفاصيلُ وخلافاتٌ تجعلك تفقه النّحو، ولا تكتفى بحفظه[2].

لا شـكّ أنّ بعض المسـائل فيه قد تجاوزها الأدباءُ والكُتابُ خلال العصور، وفى العصر الحاضر، خلال ثلاثةَ عَشَرَ قرنا، وهى التى مرّت على اللّغة العربيّة بعد تأليف «الكتاب». وهـذه الكلمة ليسـت مُخصَّصةً لمثل هذه التّجاوزات، وإنمـا أكتفى بمثلٍ واحد من مبحث النِّسبة؛ يقول سيبويه:

– هذا باب الإضافة إلى الاسمين اللذين ضُمَّ أحدهما إلى الآخر، فجُعِلا اسما واحدا.

– والإضافةُ عنده هى النِّسبة[3]. يقول سيبويْهِ: كان الخليل يقول: تُلقى الآخرَ منهما، كمـا تُلقِى الهاءَ مـن حمرةَ وطلحةَ عند الجمع، لأن طلحةَ بمنزلـة حَضْرَ موتَ. فمن ذلك

(١) كتبت سنة – ٢٠٠١م.

(٢) كنتُ قرأتُ مقدمة ابن خلدون سنة – ١٩٦٥م– عندما تخرجتُ فى المرحلة الجامعية الأولى – ولا بُدّ أن هذا الوصف قد علق بذهنى من المقدمة – ففيها كلام كهذا، ولكن، يعسـر أن يعود إلى ذهنى لولا أنى أحسسـت به، من خلال قراءتى لكتاب سيبويه، فالتقى الأمران معا – الذاكرة، والقناعة العملية، بعد قراءة (الكتاب).

(٣) – فـى كتابـى: [الرؤى النحوية] – الذى أسـلفت ذكره غير مرّة.. وجهـت انتقادات كثيرة لكتاب – سيبوَيْهِ (ومثله كل كتب النحو) – وأتيت – بالبديل– المناسب.

خَمَسَةَ عَشَرَ ومَعْدِ يكَربَ فى قول من لم يُضفْ. فإذا أُضيفتَ قلت: مَعْدِيٌّ وخمسيٌّ. أى: معديّ نسبةً إلى مَعْدِ يكربَ، وخمسى نسبة إلى خَمَسَةَ عَشَرَ. وأقول: الناس قد تجاوزت ذلك، فلا ينسبون إلى الإثنى عَشَرَ مثلا بقولهم: ثَنَوِيٌّ، كما رأى الخليل، وإنّما يقولون: المُضْرانُ الإثنَا عَشَرِيٌّ بمعنى أنهم ينسبون إلى الجزء الثانى مع الحفاظ على الجزء الأوّل ومِثْلُ ذلك.. حَضْرَ مَوْتَ. فهم ينسبون إلى الجزء الأوّل وحرفٍ من الجزء الثانى، فيقولون: حَضْرَمِيٌّ. أمّا بَعْلَبَكَ.. فقد نَسَبَ لها الخليلُ على – بَعْلِيٍّ – والناس اليوم يقولون: بَعْلَبَكِيٌّ، مِثْلُ منيرُ البَعْلَبَكِيُّ الكاتِبُ المعروف. وهم بذلك ينسبون إلى الجزئين كاملين.

– ومِثل هذا كثير. لقد تجاوزت إلى المضاف والمضاف إليه النِّسبة فى هذا الموضوع، مثلا، كثيرا مما قاله الخليلُ. لأنَّ الذَّوقَ اللّغوى تغيّرَ، ولأنَّ – الوضوح – مطلبٌ أساسىٌّ فى كُلِّ كلمة، سواءٌ أكانت مُركبةً أم مُفردةً. لأنّ اللّغة – أيَّ لغة – جاءت من أجل أن تُخرجَ الإنسان من المُبهم إلى الواضح، مع ترك خُصوصيةٍ للغموض الدّالِّ فى الأدب. ولا شَكَّ أن – بَعلِياً – فى النّسبة إلى – بعلبك – لا تَدُلّ دلالة النسبة إلى الجزئين بقولنا: بعلبكيٌّ. وكما أنّ القُدامى أهلُ اللّغة فنحن أهلُها كذلك، فمن حقّنا أن نُصَرِّفها بحيث تبعدنا عن الغُموض.

– وليس لأحد أن يقول: قال الخليلُ كذا وأنتم تخالفونه فأنتم مخطئون، لأنّنا أهل اللّغة كما أسلفنا ولأننا نريد أن تكون اللّغة مفهومةً ومُستساغةً للمتعلّم العربيِّ وغير العربيِّ، وليس هدفنا أن نُنَفِّرَ النّاس منها بهذا التقعّر الذى يُخْرِجَ اللّغة عن وظيفتها. إنَّ تقريب الفُصحى من أذواق الناس، من غيرِ أن ننزل بها إلى العاميّة الفقيرة، مطلبٌ أساسىٌّ يجب احترامه والالتزام به. إنّ اللّغة كائن اجتماعيٌّ حيٌّ ينمو ويتطوّر كما ينمو المجتمع ويتطوّر، من دون أن تخرج اللّغة على أصولها وقوانينها فى التطوّر هذه الأصول التى جاءت عن طريق (الإلهام)– كما أسلفنا القول فى القسم الثانى.

٢ – بعد هذا الاستطراد الذى اقتضاهُ المقام نقول: ورد فى الكتاب: «وقال الخليلُ: قولُكُ هذا شاةٌ بمنزلةِ قوله تعالى ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨].

نقول: هناك فرق بين القولين، كما نرى، بالإشارة الأولى – هذا – للشاةِ. أما الإشارة الثانية فهى للسَّدِّ أى: بناءُ هذا السدِّ رحمة من ربى. ثُمّ يمكن أن يقال: هذا شاةٌ وهذه شاةٌ. وذلك.. حَسَبَ المعنى المضمّن فى الكلمة، فإذا كنت تقصد التيس قلت: هذا شاة، لأن لفظ الشاة مذكر ومؤنث، أما إذا كنت تقصد العنز قلت: هذه شاة. بل إن عمرَ ابنَ أبى

ربيعةَ قد قال: ثلاثُ شـخوصٍ. مع أن شـخوصا فى أصلها مذكر، ذلك لأنه ضمّنها معنى المؤنث أى: ثلاثُ نِسْوَةٍ، والمذكر يأتى معه العدد من ٣ – ٩ مؤنثا قال عمر:

وكان مِجَنِّى دونَ من كُنتُ أتّقي ثلاثُ شخوصٍ، كاعبانِ ومُعْصِرُ

لأنَّ الكاعبينِ والمعصر نِسـوة، فتضمنت (شـخوص) معنى المؤنث. والكاعبان هما أُختا حبيبتـه المعصر، اللتـان رافقتاها وعمرَ، عندما طلع النهار وهـو لا يزال عندها، فخرجْنَ معه يرتدين المُلاءات وقد طرحْنَ عليه مُلاءةً، لكى يبدوَ الجميعُ نِسوةً يخرجْنَ فجرا لقضاء حاجة. وهذه القصة واردةٌ فى قصيدته المشهورة التى مطلعها (عِلما أنى أعتبر هذه الحكاية نسْجَ خيالِ شاعر):

أمِن آلِ نُعْم أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فَمُهَجِّرُ[1]

وكمـا أنهـم يؤنّثون المذكر إذا تضمَّن معنى التأنيث.. فإنهـم يذكّرون المؤنّث إذا تضمّن معنى التذكير. ألا ترى أنَّ الحطيئة قد قال:

ثـلاثـةُ أنـفـسٍ وثـلاثُ ذَوْد لقد جارَ الزَّمانُ على عِيالي

لأنـه عنى بالأنفس أبنـاءه الذكور، أو ابنَيـه الذكرين وابنته، فذكّـر الثلاثة من باب التغليـب، مـع أن النَّفس لفظ مؤنـث كما وردت فى القرآن الكريم، إحدى وسـتينَ مَرَّةً، ومنها قولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨]، فأنّث النفس كما أنّثها فى كُلِّ المرات الأخرى.

وأقـول: إنّ الخليلَ يقول: «وقالوا: ثلاثةُ أنفسٍ. لأنَّ النفس عندهم إنسـان. ألا تراهم يقولـون: نفسٌ واحدٌ، فلا يُدخلون الهاء». والله تعالى يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦].

– وليس لذلك من تعليل إلاّ أنَّ العربَ تقول: ثلاثةُ أنفسٍ، عندما يضمّنون النفس معنى المُذكَّر، كما قال الحطيئة آنفا. واذا قالوا: نفسٌ واحدٌ، فليس إلاّ لأنّهم حَمَلوها على المُذكر أى: إنسانٌ واحد، كما قال الخليل.

– ألا يَـدُلُّ هذا.. وهـو أن المُذكّر يُعامَلُ كالمُؤنّث إذا «ضُمِّنَ» معنـاهُ. وأنّ المُؤنّثَ يُعامل مُعاملة المذكّر إذا «ضُمِّنَ» معناهُ – ألاَ يَدُلُّ على سَـعَةِ اللّغة وحيويتها. وأنها لغة عقلانيّة يتبع اللفظ فيها المعنى؟

(١) كتبت كتابا عن هذه القصيدة– وَحْدَها – وهى خمسـة وسـبعون بيتا – عنوانه: [رائيّة ابن أبى ربيعة – فى حبيبته – نُعْم] – عَمّان/ دار البداية – ٢٠٠٨م.

٣ – ويقول الخليل: «وتقول: ثلاثةُ أشْخص، وإنْ عَنَيت نساءا، لأنّ الشخص اسم مذكّر، ومثلُ ذلك ثلاثُ أعيُنٍ، وإنْ كانوا رجالا، لأنّ العين مؤنثة».

– ونقول: هذا يخالف ما تقرّرَ سابقا. فالمذكرُ يُعامَلُ كالمؤنّث، عندما يتضمّنُ معنى التأنيث. أمّا سبق مَعَنا بيتُ عُمر ابن أبى ربيعة الذى قال فيه: (ثلاثُ شخوصٍ) لأنه عَنى بالشخوص النسوة؟ والمؤنّثَ يُعامَلُ كالمذكّر إذا تضمّن معنى المذكر. أمّا سبق معنا بيت الحطيئة الذى يقول فيه: ثلاثة أنفسٍ، لأنه قصد بالأنفس أبناءه الذكور؟

– وليس من حلٍّ لهذا الإشكال إلا أنّ ما قاله الخليلُ هو لغة لإحدى القبائل تُبقي فيها المذكّر مذكرا، وإن تضمن معنى التأنيث، وتبقى فيها المؤنّث مؤنثا، وإن تضمن معنى التذكير. وأنا أرى أن القبائل التى تميل إلى تذكير المؤنث – بالعدد والفعل والصفة – إذا تضمّن معنى التذكير، وإلى تأنيث المذكر، إذا تضمن معنى التأنيث هى أقربُ إلى الصواب اللُّغويّ، وإلى التعامل بلغةٍ مرنةٍ عقلانيةٍ تُقدمُ المعنى على اللّفظ. لأن اللّفظ ليس إلا وسيلةً لأداء المعنى، لأنّ المعنى هو المقصود. ولكنّنا لا نُخَطِّئُ من يستعمل هذه اللّغة التى أوردها الخليل، لأنّ لُغاتِ العربِ كُلَّها حجةٌ، كما قال ابنُ جنّي فى كتابه «الخصائص»[1]. ولأن التعامل مع الكلمة على أساس معنى اللفظ أصلا: أمذكّر هو أم مُؤنّث – هو وجه معتبر ... وهذا.. نوع من التّوسعة التى تُقلِّلُ الأخطاء اللّغوية عند الأدباء والكُتّاب الذين يكتبون وأيديهم ترتجف خوفَ الوُقوع فى الخطأ. إنّ العربيّة لغة سهلة قلّما يقارف الخطأ فيها من يُحَصِّلُ قَدْرا صالحا من قراءة أدبها، شِعرا ونَثرا مع شيء من النّحو.

– وأقول: إنّ قول الخليل السابق يحملنى على أن أقول: إنه يمكن أن نحمل الكلمة على «لفظها» أو على «معناها».. فإذا حملنا «شخوصا» مثلا على لفظها نقول: «ثلاثةُ شخوصٍ» وإنْ كان المقصود بالشُّخوص النِّساء، لأنّ لفظ «شخوصٍ» مُذكّر. أمّا إذا حملناها على معناها نقول: «ثلاثُ شخوص» كما قال عمرُ ابن أبى ربيعة.. إذا كان المعنى التأنيث.

– إنّ هذا الفهم يدعو إلى التساؤل: أنقول مثلا: «ثلاثة موضوعات، إذا أردنا المعنى، لأن معنى الموضوعات.. التذكير، لأن المفرد «موضوع» والموضوع مُذكّر. ونقول: «ثلاثُ موضوعات» إذا أردنا اللّفظ، لأنّ «موضوعاتٍ» لفظ مؤنّث، لأنه ينتهى بالألف والتاء، وهما علامة جمع المؤنّث السّالم مثل: مُعَلِّمةٍ ومُعلِّماتٍ وسيّدةٍ وسيّدات؟ وإن كان الجمعُ (المعلماتُ والسيّداتُ)

(١) إلا فى الإعراب .. فلا يجوز للصيغة الواحدة أكثر من إعراب واحد – كما سبق القول.

هو تأنيث فى اللّفظ وفى المعنى معا. الجواب.. إنى أرى ذلك؛ أرى حمل اللفظ على المعنى وحمله على اللّفظ فى مثل هذا الجمع.

ومثلُهُ كلمات كثيرة منها: جرّارٌ وجرّاراتٌ وإسطبلٌ وإسطبلاتٌ وإطارٌ وإطاراتٌ، وجوابٌ وجواباتٌ، وعِتابٌ وعِتاباتٌ.. الخ.

– هذا سؤال.. أرجو أن يقول فيه المتخصصون كلّمتهم، أما أنا فميّال للأخذ به استنتاجا من رأى الخليل المعتمد على لهجة عربية. مع أنّنى لم أقرأْ هذا الرأى لأحد، ولم أجدْ أحدا استعمل مع جمعِ المؤنث السالم الذى مفرده مذكّر.. العدَدَ مذكّرا، أخذا باللفظ.

٤ – وممّا يدلّ على سعة العربيّة، وأنّهُ لا يكاد يُخْطئ من يكتب بها، إذا طالع قَدرا صالحا من شعرها ونثرها.. المثالان التاليان (ومثلُهما مئاتُ الأمثلة):

(أ) فى مادة (عَيَنَ) يقول ابن منظور فى معجمة «وتصغير العين: عُيَيْنةٌ، ومنهُ قيلَ: ذو العُيَيْنتين للجاسوس، ولا تَقُلْ: ذو العُوَينتيْنِ». ولكنه يورد بعد ذلك قول ابن سيدةَ الذى يقول: «والعينُ الذى يُبعَثُ ليتجسَّسَ الخبرَ، ويسمَّى ذا العيْنينِ. ويُقالُ: تسمِّيةِ العرب ذا العينين وذا العُوينتين، كُلُّهُ، بمعنىً واحد».

لاحظ أن ابن منظور يقول: ولا تقل: ذو العُوَيْنَتَيْنِ ثم ينقل مباشرةً قول ابن سيدة الذى يقول: «ذا العَينين وذا العُوينتين». أى: إن ابن منظور يعتبر المادة يائيةً فَحَسْب، ولكنّ ابن سيدة يراها يائيّةً وواويّةً وبذلك تستطيع أن تقولَ: عُيينةٌ وعُوَيْنةٌ، لأنّ الواو ناسبت الضّمة التي سبقتها. هذا يعنى أن الذى يقول: عُيْينةٌ مصيبٌ، والذى يقول: عُوينَة مُصيبٌ كذلك. ومثلُهما العُيينتين والعُوَيْنتين. أليس ذلك تسهيلا على الكاتب، بحيثُ يجرى مع ذوقه اللّغويِّ فى استعمال أحد الاشتقاقين علما أنّ (عُيَيْنة) جاءت على الأصل اليائىّ. وعوينة.. جاءت لتناسب الضمة على – العين.

(ب) فى مادة (بَعْض) قال ابن منظور: «واستعمل الزّجاجيُّ بعضا بالألف واللام، فقال: وإنما قلنا: البعضُ والكلُّ – مجازا. وعلى استعمال الجماعة له مسامحة. وهو فى الحقيقة غير جائز. يعنى أن الاسم لا ينفصل عن الإضافة.

قال أبو حاتم: قلتُ للأصمعىّ: رأيتُ فى كتاب ابن المقفّع: العلم كثير، ولكنّ أخذ البعض خير من ترك الكُلِّ. فأنكره أشدَّ الانكار، وقال: الألف واللام لا يدخلان فى بعضٍ وكلٍّ. لأنهما معرفة بغير ألف ولام».

ما الذى يتحصَّل معنا من هذا الكلام؟

أولا: القول بأنَّهما معرفةٌ بغير الألف واللام غير مفهوم، فهما ليسا عِلما، ولا شبيهين بالعَلَم. فمن أين جاءهما التعريف؟ لا بُدّ أنه جاءهما من الإضافة.

ثانيا: إن ابن المقفع قريب من عصور الاحتجاج، ولم يستعملهُما إلا لأنَّ ذوقه اللغويُّ قد استساغهما. والذوق اللغويُّ للادباء أدلُّ على صحة الاستعمال من تحكُّماتِ اللغويّين.

ثالثا: قال الزجاجيّ: وإنما قلنا: البعضُ والكُلُّ – مجازا. ونقول: فليكُن الاستعمالُ مجازا، ولْيَبْقَ مجازا، لا ضَيرَ. لأنه يجوز. وإن الإضافة نوع من التعريف والألف واللام «نوع آخرُ من التعريف».

رابعا: دَرَجَ الكُتّابُ فى مختلف العصور على إدخال الألف واللام على بعضٍ وكلٍّ، حتى سيبويهِ والجاحظُ ... ومقاومةُ ذوق العصور لقول قاله لُغَويٌّ هو «كناطحِ صخرةً يوما ليُوهِنَها ..» أى: لا يقوى على ردِّ ما يجرى مع السليقة.

خامسا: إذن من يدخل الألف واللام على بعضٍ وكُلٍ و(غيرٍ) فليس بمخطيءٍ. وإن كان الذى يستخدمهما من دون الألف واللّام أفصح. وفى هذا توسعةٌ على الناطقين بالعربيّة، ودلالة على أنّها لغة سهلة، إنما يُصعِّبها القائمون عليها بوقوفهم عند الّذى قررته القرون السَّابقة كأنّ اللّغة ليست كائنا اجتماعيا يتطور بِتطوُّر المجتمعات! وإن كانت العربية الفصحى، فى أصولها– إلْهاما.

الموضوع الثانى

اللّغة العربيّةُ والتّعريبُ (فى العصر الحاضر)

مناقشةُ أفكارٍ فى الكتاب[1]

هذا عنوان كتاب لأستاذنا الدكتور عبد الكريم خليفة. طُبع سنة ١٩٨٧م. والحديث عن العربيّة والتعريب لا ينتهى. والكتاب كلّه – إلا قليلا – يضمّ أفكارا ناضجة فى مجال التعريب، وقد كُتب بأسلوب مشرق. وأنا أدعو القارئ إلى قراءة الكتاب للإفادة من أفكاره التى تؤمن بأن العربيّة قابلة للتطور بلا حدود.. ومع ذلك تحتفظ بأصالتها ولا تخرج عليها. لأنها تتطوّر من خلال قوانينها الصرفيّة والنحويّة ومبادئ فقه اللّغة.

وفى هذه المقالة لا أستطيع أن أعرض لمادة الكتاب كلّها. بَيْدَ أنَّ هذا لا يمنع من عرض الأفكار الجيّدة والتعليق على بعض الأفكار التى تستدعى نِقاشا. شأنُ أيِّ كتاب ألّفه بشر. فلا بُدّ من بعض الملاحظات عليه.. هنا وهناك. أمّا اللّغة والأسلوب فالكتاب كلّه معرض لها.. إلا فى مواطن قليلة سنلفت انتباه القارىء إليها.

يقول المؤلّف تحت عنوان (اللّغةُ العربيّةُ أساسُ نهضةِ أُمتنا وَوَحْدَتِها): «فاللّغة أُمّ التفكير، وما كان للمعرفة أن تأتيَ إلى حيّز الوجود بدون اللّغة. وهى فى الوقت نفسه على صلة وثيقة بالحياة العاطفيّة للإنسان، بأحاسيسه وانفعالاته. فالإنسان لا يستخدم اللّغة للتعبير عن شيء معين أو فكرة محدَّدة [فحسب][2]، بل يستعملها للتعبير عن نفسه.

لذا.. فمن الواجب ألا نأخذ بعين الاعتبار فقط الصورة التى تُصاغ عليها الأفكار، بل من الواجب أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار العلاقات التى توحّد بين هذه الأفكار وبين حساسية المتكلم» ص١٢. وهذا كلام دقيق فى العلاقة بين اللّغة والفِكر والعواطف والأحاسيس.

ويقول تحت عنوان (وسائلُ تطويرِ اللّغةِ العربيّةِ العلميّة): «لقد ذكرنا سابقا أن اللّغة العربيّة قد اجتازت امتحانا صعبا وتجربة قاسية لم تواجها من قبلُ فى حياتها، فقهرت تلك المشكلات واستطاعت أن تستوعب جميع المعانى الماديّة والفكريّة» ص٢١٢.

---

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٠م.

(٢) الكلام الذى بين قوسين معقوفين – لى.

أقــول وهــذا صحيح. فلو كان أعداء العربيّــة لا يُصِمُّون آذانهم لأدركــوا أن اللّغة التى اســتوعبت ما بين القــرن الثانى الهجرى والقرن الســادس تلك الحضارات التى ســبقت كالحضارة اليونانية والفارسية والهندية، وأكثر من ذلك.. أن تستوعب الفِكر الجديد الذى جاء به القرآن الكريم بالدَّرجة الأولى والحديث النبويّ الشريف بالدَّرجة الثانية لاقتنعوا أن لغة هذا شأنها هى لغة عَصِيّة على الانقراض، قادرة على النَّماء وقهر الصعوبات.

ويقول: «وقد توسَّع الكوفيّون فى القياس، وأباحوا النسج على القليل النادر. فلا يكادون يرون فى الأســاليب المرويّة شــذوذا بل طرقا متباينةً، لنا أن نتخيّر منها ما نشاء. وقد رُوِيَ عن أبى عليّ الفارسيّ وتلميذه ابن جنّى: (ما قيسَ على كلام العرب فهو من كلام العرب)[1] ص ٢٢٣. والمؤلّف يوافق على ذلك كلّه. وهذا عين الصواب. فَما سمّاه البصريّون شذوذا ليس، فى الحقيقة بشــذوذ وإنما وصموه بذلك لكى ينفروا الناس منه، وأيضا هو قليل ولا مانع من القياس على القليل، ما دام من كلام العرب. أما ترى أن البصريين أنفســهم قد قاســوا على كلمــة واحدة عندما لم يجدوا غيرها وهى (شَــنُوءَةُ) فجاءت النِّســبة منهــا عند العرب على (شَــنَئِيٍّ) على وزن (فَعَلِيٍّ) بفتح فَفَتح فكِســر فياء نسبة مشدَّدة، فقال البصريُّون فى (رَكُوبَة وحَلُوبة).. ركبيّ وَحَلَبيّ. أقول: ولكنهم لم يوفّقوا فى هذا القياس. لأن شنوءةَ وإنْ كانت على وزن (فَعولة) – بفتح الفاء – مثل ركوبة وحلوبة.. غير أنّ الواو حُذفت منها لأنّ ثمة تقاربا بــين الواو وبين الهمزة. فالهمزة – توهموها – شــبيهة بحرف العِلّــة، ولذلك.. حُذِفَ الواو وبقيت الهمزة عند النِّسبة وكأنهم فرّوا بذلك من توالى الأمثال الذى توهموه. ومن هنا ترى أنّ ركوبة وحلوبة تختلف عن شنوءة، إذ يجب أنْ يُنسبَ إليهما على (رَكوبىٍّ وحَلوبىٍّ) – بفتح الراء والحاء، وإثبات الواو. وإلا.. الْتِبستْ النسبة. أى: الْتَبَسَتْ النِّسبة إلى ركوبة مع النسبة إلى (رَكَب) والْتبســت النســبة إلى حلوبة.. مع النِّسبة إلى (حَلَبَ) المدِينةِ التى تقع فى شَمالِ سورية، والتى كانت عاصمة سيف الدولة الحمدانيّ فى القُرن الرابع الهجريّ. ومن المعروف أنَّ اللّغة تسعى إلى (الوضوح)، والنِّسبة إلى معنيين بصيغة واحدة ضدُّ الوضوح.

بل أنا أرى أن وزن (فَعولة) فى غير الكلمة التى أُثرت عن العرب: (شَنوءة – والنِّسبة لها شَــنَئِيّ كما أســلفنا) يبقى كُلُّهُ عند النِّســبة على وزن (فَعولِيٍّ) مثل: رَكوبيّ وحلوبيّ اللتيْن ســلف ذكرهما. لأن وزنَ (فَعيلة) بفتح الفاء الذى قاســوا عليه (فَعولة) عند النِّسبة،

(١) إلا فــى – الإعراب – فلا يجــوز فى الموضع الواحد، فى التركيب الواحد إلا حركة و احدة، ويهمل ما سواها، لسبب ذكرناه، فى هوامش سابقة.

(لأن الياء والواو – كما قالوا حرفا علّة، ولذلك بينهما تقارب) – وزنَ (فعيلة) هذا نفسه لا تأتى منه النّسبة دائما على وزن (فَعَلِيٍّ) بحذف الياء التى تقع قبل اللام، مثل (ربيعةَ) والنّسبة إليها (رَبَعيٌّ). بل تأتى النّسبة أحيانا ببقاء الياء مثل: طبيعة فالنّسبة إليها طبيعيّ – بإثبات الياء – ومثلها غريزة فالنّسبة إليها غريزيّ. ومثلهما بديهة وسليقة فالنّسبة إليهما بديهيٌّ وسليقيٌّ. هذه كلمات سُمعت عن العرب، ويمكن أن يُقاس عليها كلّ ما يعبّر عن الأصل مثل: عقيدةٍ فالنّسبة إليها عقيديٌّ – بإثبات الياء. والذين يقيسون هذه الكلمات على (فَعَلِيٍّ) عند النّسبة إنما يمدّون القياس – خطأً –، فى مثل هذه الحالة، فما سُمع عن العرب يجدر ألاّ يُعدلَ عنه إلى القياس. بل يجدر أن يصبح «قاعدة» أُخرى يُقاس عليها، كما قِسنا (عقيديّا) آنفا على الأربعة السابقة عليه التى سمعناها عن العرب لأن الكلام العربى الفصيح لا ينقاس – كما قلنا هذا، مرارا، وإنما يقاس عليه. أمّا ما ينقاس فهو كلام المولّدين منذ العصر العباسى، ونحن منهم.

إنّ البصريّين أخطأوا فى حقّ اللّغة عندما مدّوا قياس الأغلب والأعمّ، ثم اعتبروا ما قلّ «شاذّا» لينفّروا الناس منه، وما هو بشاذٍّ فى حقيقة الأمر وإنما هو طريقة أخرى للتعبير فهو عربيّ فصيح، وهو تعبير عن أمزجةٍ خاصةٍ وأذواقٍ خاصّةٍ. ولذلك.. فأنا أرى أنّ الكوفيّين كانوا أهدى من البصريّين وأقرب إلى طبيعة اللّغة التى لا يمكن أن تتحوّل إلى قياسات على الأعم الأغلب[1] – لأن اللّغة نابعة من الوجدان بعضها يسيطر عليه العقل وبعضها يغلب فيه الوجدانُ العقلَ. ومع أن اللّغة العربيّة من أكثر اللّغات استقامة مع العقل والمنطق غير أن تأثير الوجدان فى بعض الحالات لا يُنكر لقد حاول البصريون – وهم فرس فى أغلبهم– أن يعدموا القليل والنادر، لأنهم ليسوا أصحاب اللغة يتغلغل ذوقها فى أعماقهم– هاشا الخليل بن أحمد الفراهيدى – العربى صليبةً. الذى قبل القليل كما قبل الكثير.

ويقول المؤلّف فى باب الاشتقاق: «فلماذا مثلا يقتصر على اتّباع المذهب البصريّ فى كون أصل الاشتقاق من اسم المعنى لا من اسم الذات! وهذا يعنى تقديم التجريد على التجسيد. وهذا.. تضادٌّ مع طبيعة اللّغة» ص ٢١٦.

ونقول: هذا كلام فى الغايةٍ من الصّحة؛ فتقديم المجرّد على المحسوس مضادٌّ لطبيعة اللّغة حقّا، وليس هذا فحسبُ بل إنّ تقديم المجرّد على المحسوس يُخالف طبيعة

---

(١) فى كتابى: [الرؤى النحوية] بحث تفضيلى، حول أرجحيّة كثير من آراء الكوفيين على آراء البصريين – ج٤/ ١١–٤٠.

تطوّر المُجتمعات، فالمجتمع يبدأ بتلمّس المادّيّ المحسوس والتّعامل معه وإدراكه ثم فى طور متأخّر ينمو عقل الإنسان فيبدأ يدرك شيئا من المعنويّات (=المجرّدات) ويتعامل معها. ولهذا.. فليس اسم الذات وحْدَهُ سابقا على الاسم المعنويّ (=المصدر) وإنما يسبقه الفعل كذلك. لأنّ الإنسان يفعل الأكل قبل أن يُدرك الاسم المعنويَّ لهذا الفعل. أمّا حكاية أن المجرد بلا زمن وأنّ الفِعل له زمن. ولذلك فالمجرد بسيط والفعل مركّب. والبسيط مُقدَّم على المركّب.. فهذا منطق «صوريّ» لا يتّفق وحقائق الواقع الماديّ وتطوّر الحياة، أيْ: هذا منطق أرسطيّ قاصر عن تمثيل حقائق الأشياء وقد سلفَتْ إشارة إلى موضوع الاشتقاق، فى القسم السابق = الثالث.

يضاف إلى ذلك أنّ العرب لم يشتقّوا من الفِعل ثم المصدر واسم الذات فحسب، بل اشتقوا من أسماء الأعيان فقالوا، مثلا من (دِرْهَم) دَرْهَمَ، ومن الجوامد فقالوا من الحجر.. تحجَّر، وقالوا من (كم).. كميَّة، ومن (كيفَ).. كيفيّة، ومن الضمائر.. مِنْ (هو) هُويّة. ومن الحروف فقالوا عن قولهم: عن فلان عن فلان.. عَنْعَنَ وعَنْعَنَة وراوٍ مُعنعِن – بكسر العين الثانية، وحديث معنعَن – بفتح العين الثانية. واشتقّوا من اسم الصوت (هُشْ) – بضم فسكون – ومنه اشتقوا الفعل (هَشَّ). وقد ورد فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام عندما سأله ربّه تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [طه: ١٨– ١٩] ومعظم الكتاب هو من هذا الطبق الرفيع.

ملاحظات على الكتاب:

ولكنّ ثمة أفكارا قليلةً تُحَرّض القارئ على مناقشتها.. فلنأخُذ بهذا النِّقاش: والله تعالى أعلم بالصواب، إنما نحنُ نقدّم رأيا مع دليله، ليس أكثر:

١ – ينقل المؤلّف الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة عن فقه اللّغة لعليّ عبد الواحد وافى فيقول وافى: «وهذه النصوص الأدبيّة تمثّل اللّغة العربيّة الفُصحى فى عنفوان اكتمالها وعظمتها، بعد أنْ اجتازت مراحل كثيرة من التطوّر والارتقاء.. وبعد أنْ تغلّبت لهجة من لهجاتها، وهى لهجة قريش، على أخواتها، واستأثرت بميادين الأدب.. شعرها وخطابتها ونثرها فى مختلف القبائل العربيّة». ص ١٨.

وهنا نتساءل: معروف أنّ اللهجات تنشأ عن لغة أُمٍّ تبعا لطبيعة الاتّساع والانتشار فى اللّغة تبعا لاتساع الرقعة الجغرافية التى تنساح عليها اللغة. فأين اللّغة الأمّ التى تولّدت

عنهـا لهجـات القبائل العربيّة؟ إيتونى بنص واحد عليها، أو أثرٍ واحد من آثارها. أمّا أن نفترض – أمّا – لا وُجودلها.. فهذا – رجم بالغيب، وافتراض من دون برهان ولا دليل. ولـذا.. فهو افتراض – عبثيّ. أنا أرى أنّ اللّغة الأُمَّ هى اللهجات السـبع، وفى مقدمتها لهجـة قُريش، ولكن لاختلاف المواطـن الجغرافية أصبحت اللّغة تتأثر بمُحيطها الجغرافيّ والانسانيّ. فتولدت ألفاظ جديدة قليلة وتراكيب جديدة نادرة ليست بعيدة – بعضها عن بعض بُعدا بَيِّنا وليست جزءا منها، وتنحو نحوا مختلفا بعض الاختلاف فى التنغيم، مما يميّز لهجة من لهجة. ولهذا.. ظلّت تشـدهم اللّغة الأُمَّ التى أصبحت لهجة قريش، فإذا كتبوا شعرا أو نثرا كتبوا بها. يُساعد فى ذلك المواسم التى كانت تُقام فى مكةَ المكرمةِ كلَّ سـنة، وعلى رأسها موسـم الحجّ يُرافقه موسم التجارة والموسم الثقافيّ.. الشِعريّ والخطابيّ بالدَّرجـة الأولى، ولهـذا نزل القرآن الكريم جُلّةُ وألفاظُهُ تماثـل ألفاظ اللغة التى أصبحت الأم– بـل الأصح أن نقول: وألْفاظُ فى اللغة الأم تماثل ألْفاظَهُ، لأن القرآن الكريم ..قديم، واللغـة العربية.. حادثة. وما فيه مما يماثـل اللهجات الأُخرى إنما هو فى أغلبه لون من القـراءات النابعـة من أصوات اللّهجـات لا من الألفاظ التى تُخالف بهـا اللهجات اللّغة الأم. فمن القِراءات مثلا: «بسم الله مَجراها ومُرساها» أو «بسم الله مَجْرِيها ومُرساها» وهذا اختلاف فى تنغيم الصوت، لا فى الصوت ذاته، ولا فى الكلمة، ولا فى المعنى.

والفصحى – كما وضحنا– فى القسم الأول هى « إلهامية» وليست آتية من لغة بدائية، بعـد أن اجتازت مراحل كثيرة مـن التطور والارتقاء. وليس للقائلين بهذا، ولا دليل مادّىّ أو عقلى مقنع واحد، فهم يرجمون بالغيب[1].

٢ – ويقول: «وهذا يعنى أنّه ليسـت هناك لغة أفضل من لغةٍ بحدّ ذاتها، حيثُ إنها متّصلة بالإنسـان، كما بيّنا سـابقا، اتصالا جوهريّا، وحيثُ أن البشرِ يتساوون فى قيمتهم الإنسـانيّة، فلغاتهم مُتسـاوية أيضا. ويطيب لى فى هذا المجال أن أورد رأى ابن حزم إذْ يقـول: وقد توهّم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللُّغات، وهذا.. لا معنى له. لأنّ وجوه الفضل معروفـة، وإنمـا هى بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نصّ فى تفضيل لغة على أخرى. وقد قال تعـالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

(١) انظر : تفصيل أن اللغة الفصحى إلْهامية، فى القسم الثانى.

وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ . فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلاّ ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك).

«وبعد أن يُفرّقَ الإمام أبو محمد عليّ بن حزم بين اللّغة العربيّة من حيثُ هى لغة لا فضلَ لها على لغات الأمم الأخرى، وبين ما شرّفها الله به – سبحانه وتعالى – بأنْ جعلها لغة القرآن[1] – ليفهم ذلك قومه عليه السلام) نجده يسخر من مقولة جالينوس سخرية شديدة فيقول: (وقد غلط فى ذلك جالينوس فقال: إنّ لغة اليونانيّين أفضل اللُّغات. لأن سائر اللُّغات إنّما هى تشبه إما نُباحَ الكلاب أو نقيق الضَّفادع: قال عليّ [ابن حزم] – أى: وهذا جهل شديد لأنّ كلَّ سامع لغة ليست لغتَهُ ولا يفهمها فهى عنده فى النِّصاب الذى ذكره جالينوس. ولا فرقَ).. ص٢١.

وأقول: قول المؤلّف: «وهذا يعنى أنه ليست هناك لغة أفضل من لغة بِحدّ ذاتها، حيثُ إنّها مُتصلة بالانسان، كما بَيّنا سابقا.. اتّصالا جوهريّا، وحيثُ إنّ البشر يتساوَوْن فى قِيمتهم الإنسانيةٍ فلغاتهم متساوية أيضا». يحتاج إلى نقاش: فأنا أرى أنّ ثمة لغةً أفضلُ من لغة، وأنّ اللُّغات تتفاوت. فإذا كانت اللّغة نِتاجا للمجتمع، وأنها صورة لما وصل إليه من علم وفكر وسموٍّ فى الذوق والأخلاق – وهى كذلك – فإنه يستحيل أنْ تتساوى لغة بدائية ولغة حضاريّة. وهل يمكن أنْ تتساوى لغة فى أدغال إفريقيّة فى الحاضر، باللّغة الانجليزية (بَلْهَ اللّغةَ العربيّةَ) مثلا؟ إنّ ذلك ضرب من المستحيل. بل هل تتساوى لغة قوم نوح أو هود أو صالح أو شعيب – عليهم السلام– بلغة العرب الفصحى، إبّانَ رسالة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنّ ذلك ضرب من المستحيل كذلك.

قد تقول: وإذا كانت لُغاتهم ضعيفة فكيف استوعبت دعوات الأنبياء عليهم السلام؟ فأقول: إنّ الدين فى كل زمن وعلى لسان أيّ رسول.. مفرداتُهُ «بسيطة» فالدين – دائما – ثلاثة أقسام هى: العقيدة والعبادة والتشريع. والعقيدة لا تزيد على أنها اعتقاد بوجود الله الواحد الأحد الخالق للكون المُدبّر له. وبأنّ هناك موتا وبعثا وحسابا ثم يدخل، بعدُ، المؤمنون الجنّة ويدخل الكافرون النّار. وأن هناك ملائكة أطهارا، وجِنا. كل ذلك يَرِدُ على لسان النّبيِّ أيِّ نَبيٍّ وهذا يؤدى بلغة لا تزيد مفرداتها على ثلاثة آلاف كلمة.

---

(١) العربية الفصحى .. ليست لغة القرآن، بل هى اللغة التى يفهم بها القرآن، ويفسر بها – ويدرك إعجازه. (انظر: القسم الرابع من هذا الكتاب – الموضوع التاسع :(أحقا أن القرآن – أنزل باللغة العربية الفصحى)؟

أمّا العبادة.. فهى محدودة المفردات منها الصلاة والزكاة ومنها الصوم بكيفيّات يوضّحها الرسول بالقول والعمل. وأمّا التشريع فقد كان فى كلِّ الدعوات قبل الإسلام يركّز على جانب واحد أو جوانب قليلة من أعمال البشر، مثلا لوط نهى قومه عن الفاحشة التى كانوا يمارسونها مع الذكران من العالمين. وشعيب نصح قومه أن يوفُوا الكيل والميزان وأنْ لا يبخسوا الناس أشياءهم. وحتى فى الإسلام فإن مبادئ التشريع محدودة، فإلى جانب الحدود فهناك مبادئ عامّة كطلب العدل فى المُعاملات وكالاستخلاف فى الأرض، مما يُقرّر مبدأ المصلحة العامّة والخاصّة. وما يبقى خاضعا للاجتهاد فى ضوء مبادئ الإسلام وهى العدل والمصلحة. ثم شيءٌ من التفصيل فى الأحوال الشخصيّة، الزّواج والطّلاق والإرث. ولهذا.. فالإسلام نفسه آخر الأديان وأكملها يَفهمُ مفرداتِهِ العامِيُّ كما يستوعبها المثقّف كما يشرّع على أساسها العالم. بَيْدَ أن مبادئه – العامّة المختصرة – استوعبت كل جوانب الحياة.

أتعتقد أنّ هذه المُفردات القليلة الواضحة البسيطة التى يفهمها ويستوعبها العاميُّ.. لا يمكن أنْ تُفْهَمَ إلا من خلال لغة راقية؟ إنّ الديانات القديمة نزلت بلُغات قليلة المُفردات غير ثرية العبارات ليس بينها وبين الإنجليزيّة مجال للمُقارنة (ناهيك بالعربيّة). أيُقال بعد ذلك أنَّ اللُّغات.. القديمة والحديثة كلها متساوية وغير متفاوتة؟

أمّا القول بأنّ «البشر يتساوون فى قيمتهم الإنسانيّة.. فلُغاتهم متساوية أيضا». فليس فى تساوى قيمتهم الإنسانية أدنى دليل على تساوى اللُّغات. لأنَّ تساوى البشر حتى فى مُجتمع واحد فى القيمة الإنسانيّة لا يؤدّى إلى تساوٍ فى المقدرة اللغويّة.. فهُناك الفصيح كسَحْبانَ وائلٍ، وهناك العَيِيُّ الذى لا ترتفع لغته على لغة (باقلٍ).. ومثل الأفراد المجتمعات.. فهناك أمّة هى أربى من أُمّة أخرى فى لغتها.

٣ – ويورد المؤلف رأى ابن حزم فى اللُّغات الذى يقول: «وقد تَوهّم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللُّغات. وهذا لا معنى له. لأنّ وجوه الفضل معروفة، وإنما هى بعمل أو اختصاص. ولا عملَ للغة، ولا جاء نصٌّ فى تفضيل لغة على لغة».

وأقول: لقد بان لك مما ذكرناهُ سابقا أنّ اللُّغات مُتفاوتة فى كثيرٍ.. فى المفردات والتراكيب وفى قُدرتها فى التّعبير عن دقائق الفكر. وما حمل ابن حزم على أنْ يركب هذا المَرْكَبَ الصعْبَ فتَناسى عظمة اللّغة العربيّة إلاّ لأنه كان بِصدد الردِّ على (جالينوس)

اليونانىّ الذى كان يرى أنّ اللّغة اليونانيّة هى أفضل اللُّغات. وإلاّ.. فاحتجاجه بأنّ الفضل يأتـى مـن العمل أو الاختصاص، وأنّ اللّغة لا عمل لها غـير دقيق. لأنّ اللّغة – أىّ اللّغة – ذاتُ عمل عظيم لأنها هى التى تعبِّر عن عمل الإنسـان فى الوجدان والعاطفة والمشـاعر والأحساسيس والعقل كذلك. ولولاها لما استطاع الإنسان أنْ يخلّف وراءَهُ إلاّ القليل. بل إنّ انفعالات الإنسان وأفكارَهُ إنما هى لغة الى حدٍّ كبير ثم .. تصاغ باللغة.

أمّا قوله: «ولا جاء نصّ فى تفضيل لغة على لغة» فهو غفلة عن قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣]. فلو كان اللّسان الأعجمّى – كلُّ لسان أعجمىٍّ – بإبانة اللسان العربىّ لقال تعالى (وقولُهُ الحقّ): «لسان الذى يُلحدون إليه أعجميٌّ.. وهذا لسان عربىٌّ» فحسبُ. فلمّا أضاف «مُبينٌ» للعربى عرفنا أنَّ اللّسان العربىَّ أبْيَنُ من اللسان الأعجمـىّ. ومعـروف أنّ القرآن لم يَرِدْ فيه حرف واحد، ليس له معنى، بل – ولا حركة واحـدة فكيـف إذا كان الوارد كلمةً هى (مُبينٌ). ومـن البديهى أن القرآن المعجز لا تحمله إلا لغة معجزة.

وأمّـا قوله (ابن حزم): «قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

مُستدلاً به على تساوى اللغات فى الأداء. فليس فيه أدنى دلالة. بل لَعَلّةُ ممّا يُمْكِنُ أنْ يُمَدَّ به القولُ ويسـتقيمَ معه المنطق أنْ نقول مفسِّـرين للكلام السابق: «وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم» وإنْ كان لسانهم غير راقٍ وغير غنيّ بالمُفردات والتراكيب. المُهم أنه اللّسان الوحيد الذى يستطيع الرسول أن يُبيّن لهم دينهم به لأنهم لا يتقنون غيره. لأنّ مُفردات الدين قليلة بسـيطة (كما عرفنا سـابقا) يكفى لتبيينها أىُّ لسان مهما كان محدود المفردات والتراكيب.

وأمّا استشهادُ [ابن حزم] بقوله تعالى لمحمد – رسول الرحمة– صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [1] [مريم–٩٧].على أنْ لا فرقَ بين الألسـنة.. فليس بدقيق. لأنَّ تعبير«يَسَّرْناهُ بلسانِكَ» توحى أنّ تيسير تعاليم الإسلام – وقد اكتملت فى الرسـالة الأخيرة – لم يكن ممكنا لولا أنه كان بلسـانك، يا محمد، أىْ: باللّسـان العربىّ.

---

(١) وقوله تعالى: [فإنما يسـرناه بلسـانك ...] يعنى أن القرآن نزل (بكلام) نسـتطيع أن نفهمه بلسـانك وتوضحه للناس، ولسانه – صلى الله عليه وسلم – هو اللغة العربية الفصحى.

لأنّ اللّسان العربيّ أفصحُ الألسنة وأبْيَنُها. لقد تيسّرت تلاوة القرآن المُعجز، وفهم ما يَهُمُّ الإنسان في حياته للاستقامة، ثم لدخول الجنّة لأنه نزل باللّسان العربيّ، ومما لا يستقيم في العقل أن ينزل المعجزُ بلغة غيرِ مُعجِزةِ الأصول والتكوين بسبب أنها إلهامية. ولا سيّما أنّ إعجاز القرآن، إذا أُطلق، فإنما يُقصد به الإعجاز اللغويُّ. لأنّ الإعجاز اللغوى تحدّى به القرآن العربَ حتى في أقصر سورة وهي سورة (الكوثر). لأنّ ما تنطوى عليه سورة الكوثر من إعجازٍ لُغويٍّ إنما هو نمط لهذا الإعجاز اللّغويّ في كلّ سور القرآن. أمّا أنواع الإعجاز الأخرى كالتّشريعيّ والغيبيّ والعلميّ.. فإنما هي في بعض الآيات المُتفرقة في القرآن.

من هذا يتبيّن لك أنّ قول ابن حزم: «فأخبر تعالى أنّه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلاّ ليفهم ذلك قومه – عليه السلام – لا لغير ذلك» إنما هو قول لم يدرك إشعاعات اللّفظ القُرآنى التى أوضحناها.. آنفا. أو هو قول يقوم على المغالطة للردّ على (جالينوس).

واستدلال ابن حزم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ « ليس فيه أدنى دليل على تساوى اللُّغات. بل هو لا يعرض لأمر اللّغات من بعيد ولا قريب. وهذا.. شبيه بقوله تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ « فأين مقام اللّغة في هذا الكلام؟ ومثله استدلاله بقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الشعراء– ٩٦] « أيْ: لفي كُتب الأولين. فماذا في هذا من دليل على تساوى اللُّغات؟ يقول ابن كثير في مختصر تفسيره، عن معنى هذه الآية: «وإنّ ذِكْرَ هذا القرآن والتنويهَ به لموجود في كتب الأوّلين المأثورة عن أنبيائهم». بل أقول: أنا لا أرى مانعا من أنْ يكون المعنى: «وإنّ مبادئ هذا القرآن من عقيدة وعِبادة خاصّة، ومن تشريع بدرجة أدنى، لموجود في كتب الأوّلين، ولا سيّما وقد عرفتَ مما أوردناه سابقا أن الدِّيانات كلّها تدعو إلى عقيدة واحدة وإلى عبادة واحدة من حيثُ هي موجّهة إلى الله تعالى، وإن اختلفت في الشّكل بين رسالة ورسالة، وإلى تشريع يتناسبُ وحالةَ القوم الذين تنزل عليهم الرسالة.

وأوغلُ في الضعف من كلامه السابق قوله: «وحروف الهجاء واحدة لا تفاضُل بينها، ولا قبحَ ولا حُسنَ في بعضها دون بعض. وهي تلك بأعيانها في كلّ لغة. فبطلت هذه الدّعاوى الزّائفة الهجينة» أيْ: دعاوى جالينوس بأن اليونانيّة أرقى اللُّغات في حينها. أقول: وجالينوس على حقّ. نعم، أَوْغَلَ في الضعف لأنّ اللُّغات لا تتفاضل بالدّرجة الأولى

ولا الثّانيــة فى أصوات الحــروف.. وإنما تتفاضل بالدّرجــة الأولى بالعلاقات بين الألفاظ القائمة فى التركيب. وبالدرجة الثّانية بالألفاظ – كثرةً أو قلّةً– وبالدّرجة الثالثة بالأصوات ولــذا .. فالفــرق الضئيل بين اصــوات الحروف. لأَحْفَرُ من أن يؤيــد دعوى عدم « تفاوت اللغات فى القدرة على التعبير والتوضيح».

وإذا أردت أن تعــرف أنَّ التفاضُــل بالدّرجة الأولى راجــع إلى التركيب فانظر إلى قوله تعــالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢] فإبراهيم عليه السلام فاعل، ويعقوب عليه السلام فاعل.. لأنه معطوف على إبراهيم ونحن يمكن أن نغيّر التركيب على الصورة التالية: «ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما.. « فهل يتساوى هذان التركيبان فى المزيّة والفضل؟ اللهم.. لا. بل إن بينهما تباعدا كبيرا فالتركيب الأول قدّم إبراهيم وأخّر يعقوب – عليهما السلام– إلى ما بعــد ورود المفعــول به (بَنيهِ). لأنّ إبراهيم أبو الأنبياء، ولأنّ يعقوب حفيده.. فلا يجوز أن يأتــى الحفيدُ جنبا إلى جنب مع جدِّهِ بل يجب أن يأتيَ متأخرا عنه بوضوح فى التركيب حتى يشــعر القارئُ من إشــعاعات التركيب (أو الســياق) أنّ يعقوب ليس مُســاويا لجدّهِ إبراهيــمَ، خاصــةً أنّ إبراهيم أبو الأنبياء، ويعقوب نبيٌ مــن عُرض الأنبياء أمَا قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولو كان مُســاويا له أو مُقاربا لجاء بعده مُباشــرة. ومن هنــا يبدو لنا قصور التّركيــب الثانى الذى اقترحناه عن التعبير عــن المعنى المُراد، قُصورا واضحا. الكلمات نفســها لم تتغيّر وإنما تغيّرت علاقاتها.. فكان من جرّاء ذلك تغيّر هائلٌ طــرأَ على المعنى. أرأيــتَ لو أنّ القيمــةَ للكلماتِ وأصواتها، حتى على مســتوى الدرجة السادسة، من عشْر درجات– من حيثُ هى كلماتٌ مبعثرةٌ.. أينشأ معنا هذا الفرق الهائل فى المعنى بين تركيب وتركيب للكلمات نفسها؟

– ولكى تعلم قصور الإنجليزية (وسائر لغات الأرض) فى التعبير عن العربية الفصحى – فترجم قول القرآن السابق إلى الإنجليزية – بنفس الترتيب – تجدْ أن المعنى يختلف – نقول فى الإنجليزية:

(Ibraheem recommended his sons and Ya'eob) فلا يفهم منها إلا أن إبراهيم – وصىّ بنيه ، ووصى يعقوب. ولا يكون معنى أن إبراهيم ويعقوب. وصيا بنيهما على نفس معنى القرآن– إذا جاءت العبارة هكذا:

Ibraheem and Ya'eob recommended their sons. وهذه عبارة قاصرة، لأنها تساوى بين إبراهيم ويعقوب.. وهما غير متساويين– كما عرفنا.

وإذا أردتَ أنْ تعرف الفرق بين جَرْس الكلمات فاقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ (عبس – ٣٣) وقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات ٣٤]. فالآية الأولى وردت فيها (الصّاخّة) والثانية وردت فيها (الطّامّة). ولا شكّ أنك واجد فى صوت (الصّاخّة) من الشّدة ما لا تجده فى صوت (الطّامّة) مع أنهما كلتيهما على وزن واحد. لأنّ فى الصّاد المُشدّدة والخاء المُشدّدة من شدّة الصوت ما ليس فى الطاء المُشدّدة (على شدّتها) ولا فى الميم اللّيّنة وإنْ كانت مُشدّدة.

ولا شكّ أنّ هذا الفرق فى الشّدّة له انعكاس على المعنى وشعور القارئ بفارق بدرجة الهَوْلِ بين اللّفظتين، فالصّاخة أشدّ هولا من الطامة، مع أنّ كلاً منهما تعنى يوم القيامة. ولهذا وُصِفَت الطّامّة بالكُبرى ولم توصف الصّاخّة بذلك.. لكى يُساويَ معنى الطّامّةِ مع صفتها معنى.. الصّاخّة.

وأنت ترى أنّ هذا الفرق يؤثّر فى معنى اللّفظ وهو أقل أهميّة بذلك من التأثير فى معنى التركيب.

أمّا أصوات الحروف من حيثُ هى حروف فلا قيمةَ كبيرةً لها، وإن كانت لا تخلو من تأثير. لأننا نقول: قَلَعَ، ونقول: بَلَعَ.. فنجد أنّ صوت القاف يعطى الكلمة الأولى من الشّدة ما لا تعطيه الباء فى الكلمة الثّانية للفرق بين صوتىّ الحرفين. بل إنّ التصويت بحرف الخاء أشدّ وأصخّ للأذن من التصويت بحرف النون، ولكن قيمة صوت الحرف المفرد، سواء أكان صاخّا أو ليّنا.. ضئيلة جدا، لأنه فى هذه الحالة.. لا يرتبط بمعنى. والذى يعطى الحرف قيمته إنما هو المعنى.. والحرف المفرد ليس له معنى. وبذلك.. فلا أقلّ من أنْ يكون جزءا من كلمة ليصبح له معنى.

على هذا.. فالأهميةُ الكبرى للكلمة فى التركيب ثم هناك أهمية دنيا للكلمة خارج التركيب. أمّا الصوت فلا قيمةَ تُذكر له وهو منفرد.

وبهذا ترى أنّ استدلال ابن حزم بتساوى اللُّغات بسبب عدم تفاضل أصوات حروفها.. إنما هو قول هجين لا عقل وراءه إنما جلبه « التعصب» الذى يُعمى عن الحقّ، ويَصِمُّ.

أمّـا قـول ابن حزم الذى يُوافقه عليه المؤلّف وهو: «قـد غَلِطَ فى ذلك جالينوس فقال: إنّ لغة اليونانيّين أفضل اللُّغات. لأن سائر اللُّغات إنما هى تُشبه إمّا نُباحَ الكلاب أو نقيق الضفادع. قال عليّ – أيْ: ابن حزم – : وهذا جهل شـديد، لأنّ كلّ سـامع لغةٍ ليسـت لغتـه ولا يفهمهـا فهى عنده فـى النِّصاب الذى ذكره جهلا شـديدا جالينوس. ولا فرق» أقول – إن قول جالينوس ليس خطأً وإنما هو حقيقة تبين لك ممّا أسلفناه، ومن خصائص اللّغـة اليونانيّـة التى لا تزال جُذورها ضاربةً فى بضع لغات حيّة والتى لا تزال مصدرا ثرّا للمُصطلحات العلميّة، فكثيرا ما يستعين العُلماء بجذور اللّغة اليونانيّة وما فيها من سوابِق ولواحِـق. ولـولا غِناها بالمُفردات وتفوّقها على كثير من اللُّغات المعاصرة لها، بل وكثير من اللُّغـات المُعاصـرة لنا لِما كان لها هذه الأهميّة عند العلماء. وإلاّ.. فلماذا لا يأخذ العلماءُ من لغة الآشوريّين ولغة البابليّين المعاصرتين لها؟

أمّـا قول ابن حزم: «الذى يوافقه عليه المؤلف وهو: (قد غلط فى ذلك جالينوس فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات؛ لأن سائر اللغات إنما هى تشبه: إما نُـباح الكلاب، أو نعيق الضفادع. قال – على – (أى: ابن حزم): وهذا جهل شـديد؛ لأنَّ كلَّ سـامع لغة ليسـت لغته ولا يفهمهـا فهى عنده فى النِّصاب الذى ذكـره جالينوس. ولا فرق».. فغير دقيـق قـول ابن حزم كذلك. أمّا تـرى أن الإنجليز والأمريكان، وأكثرُ منهم الفرنسـيون، يأكلـون نصف أصوات الكلمة حتى لتبـدوَ كنباح الكلاب حقا؟ وذلك جعل (فندريس) فى كتابـه (فقه اللّغـة) يرى أنه أصبح هناك تباعد كبير فى الإنجليزيّة، وفى الفرنسـيّة على الخُصـوص، بين صوت الكلمة ورمزها المكتوب حتى ليخشـى أن يصبح النّاس فى هاتين اللّغتـين يُصوِّتـون غير ما يكتبون، ويكتبون غير ما يُصوّتون، فيحدث مع الزمن طلاق بين الصـوت ورمـزه الكتابيّ. أفـترى أنّ اللّغة العربيّة الفصحى التى لـكلّ حرف فيها صوت يتطابـق معه غالبا.. مثل هاتـين اللّغتين، مع أنهما لغتان عالَميّتـان؟ الحقّ.. لا فأصوات كلماتها ومخارج حروفها جهيرة واضحة.

وهنـا أقول: أحسـبُ أن الذى حمل أبـن حزم – رحمه الله تعـالى– على هذا الرأى هـو : أن اليونانيـين القدامى – زمن أفلاطون، وأرسـطو، كانون يـرون أن اليونانية هى

أبلـغ اللغات، (وهم على حقّ، لأنهـا لغة مُعْرَبة، والإعراب يزيد اللغة – أى لغة– بيانا وفصاحة، لأن حركة الإعراب تُعبّر عن معنى مضاف لمعنى الكلمة، فقرّر ابن حزم (مناكفا) أن اللغات متساوية فى البلاغة. وليس ذلك بصحيح – كما أوضحنا– ولو تدبّر الأمر جيّدا، لقال: إن اليونانية هى أبلغ اللغات القديمة، لأنها، مُعْربة، دونها، أمّا العربية الفصحى.. فهـى أبلغ اللغات جميعا– قديمـا وحديثا– لأنها اللغة الوحيـدة المُعْربة فى زمانه (وإلى اليوم) ولأن الإعراب فيها أوسـع وأشمل مما هو فى اليونانية القديمة المعربة (التى أمسـت بائدة من الاسـتعمال الحيّ، فى زمانه، وإلى يوم الناس هذا) . وأوسـع اللغات إعرابا هى – أبْيَنُها وأبلغُها.

٤ – العربيّة والإنجليزيّة: لقد نوهّنا فيما سبق أنّ العربيّة متفوّقة على الإنجليزيّة، مع أن الإنجليزيّـة لغة عالميّة فى هـذا العصر. ذلك لخصائصَ فى العربيّة لا يوجد مثلها على نفس المُسـتوى فى الإنجليزيّة. وقد يكتب فى هذه الفروق كتاب من ألف صفحة. غير أنّ مقالة واحدة لا تتّسـع إلاّ للقليل من ذلك. وأنت واجد شـيئا من هذه المُقارنة فيما سبق من أقسام هذا الكتاب. ونكتفى هنا بالإشارة السريعة إلى ثلاثة أشياء هى:

– الإملاء.

– الاشتقاق.

– الميزان الصرفىّ.

الإملاء: سَبَقَ أن ذكرنا أن هناك فرقا هائلا بين الصّوت والرّمز [الحرف] فى الإنجليزيّة. ونُضيف أن هناك كثيرا من الحروف التى تكتب ولا تُصوّت مثل: Daughter، فالـ (gh) لا يُلفظـانِ أبدا. ومثلها مئـات الكلمات، ونُضيف كذلك أنّ حروف «العِلّة» فى الإنجليزيّة ليـس لكلٍ منها صـوت ثابت خِلافا للعربيّـة. ونكتفى بالتمثيل بالـ (O).. فأنت تقول (God) فتلفُظها (جادْ) وكأنها ألف ممدودة. وتقول (Good) ولكنك تصوّتها بصوت قصير (جُـدْ). فما هـذه اللّغة التى يُمَدّ فيها (الواو) وكأنه ألف ممـدودة، ويقلّص فيها (الواوان) المُتواليـان وكأنّهمـا واو واحدة، بـل وكأنهما ضمّة؟ أين هذه اللّغة مـن اللّغة العربيّة التى لا يختلط فيها الضمُّ (الحركة) بالواو (الحرف).. أبدا. فالصوت قصير فى الضمّ أبدا، طويل فى الحرف أبدا. ومثل الضم.. الفتحُ والكسرُ كحركتين وكحرفين؟

الاشـتقاق: فى اللّغة العربيّة نشتقّ من كلّ شـيءٍ، مما يجعل الاشتقاق من مزايا اللّغة العربيّـة التـى لا تُدانيها بـه اللّغة الإنجليزيّة قليلة الاشـتقاق. العربيّة تشـتّق من الفعل

مصدرا مثل: كَتَبَ ومصدرها كَتْبٌ أو كتابة. وتشتقّ منه – إلى جانب المصدر – أشياء كثيرة مثل: كتاب، مكتبة، مكتب، كتيبة، كاتب، مكتوب..الخ. ثم نشتق من الفعل نفسه فعلا آخر، ونشتقّ من هذا الفعل الآخر عددا آخر من المشتقات. كأن نقول من (كَتَبَ): استكتب. ومنها نُولّد مشتقات كما ولّدنا من الفعل الثلاثى السابق.

ونشتقّ من اسم الذات فنقول من كلمة (الذهب) الفعل (ذهّب) – بتشديد الهاء – ونشتق من (ذهّب) مشتقّات كثيرة. ونشتقّ من الاسم الجامد فنقول من (حَجَر): استحجر. ونشتق من هذا الفعل كثيرا من المشتقّات. ونشتق من الاسم الأعجميّ فنقول: (دَرْهَمهُ) من (الدرهم). ونشتِقّ من الضمير فنقول: (هُويّة) من الضمير (هو). ومن الحرف فنقول: عَنْعَنَ الحديث. أيْ قال: عن فلان عن فلان.. ومن أسماء الأفعال، فقد اشتقّ من (هُشْ) زجرا للغنم (أهشّ) كما قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه – ١٨].

وكلّ فعل نشتقّه.. نشتقّ منه كثيرا من الكلمات. فأين اللّغة الإنجليزيّة من هذه الغزارة الاشتقاقية فى اللّغة العربيّة؟! وقد سبق مثل هذا القول.

الميزان الصرفيّ: العربيّة تقوم على أوزان قياسيّة غالبا. وهذا يُسهِّل تعلّم اللّغة وتوليد عشرات الآلاف من الألفاظ على كلّ وزن. ونكتفى بمثالٍ واحد على ذلك هو (اسم الفاعل). اسم الفاعل فى العربيّة له وزنان فقط هما وزن (فاعل) من الفعل الثلاثى. ومما فوق الثلاثيّ يأتى على وزن مضارعة بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومةً وكسر ما قبل آخره. مثال الثلاثى: قَرَأَ واسم الفاعل: قارئ. ومثال ما فوق الثلاثيّ: اجتهد. واسم الفاعل (مُجتَهِدٌ) أيْ: يُضِمُّ الميم وتكسر الهاء. ولا يخرج على ذلك إلا بضعة ألفاظ مثل: (مَوْسَق) واسم الفاعل (موسيقار). ولكننا نقول أيضا: (مُمَوْسِقٌ) وهذا على القياس. لأنّ اسم الفاعل الأوّل يعنى الصّفة الثابتة، واسم الفاعل الثانى يعنى الدلالة على الحدث.

وهل الإنجليزيّة لا تحتفظ إلا بصيغتين فقط لاسم الفاعل، بل لا تحتفظ إلا بعشْرِ صيغ لاسم الفاعل؟. ليس هناك «وزن» لاسم الفاعل فى الإنجليزيّة أو أوزان وإنْ تعدّدت وإنّما هناك نهايات متعدّدة.. كلُّ مجموعة كلمات تنتهى – اعتباطيّا – بعلامة لاسم الفاعل. فهى من (writer) .. (write) ومن (participant) ..(participate). ما الذى جعل علامة اسم الفاعل فى الكلمة الأولى (er) وفى الكلمة الثانية (ant)؟ لا أحَد يعلم،

وإنما هي قضيّة «اعتباطيّة» لا يُقاس عليها وكلمة (Pray) يصلى.. لا يأتى منها اسم فاعل- أصلا- لأن (Prayer) معناه (صلاة٩ وليس المصلى.. ومثل هذه الأمثلة الثلاثة.. كثير.

فهل هُناك مجال للمُقارنة بين قِيام العربيّة على أوزان قياسيّة فى صيغة اسم الفاعل وصيغ كثيرة أُخرى كاسم المفعول وصيغة المبالغة (= الصفة المؤكدة) واسم الآلة واسم الزمان واسم المكان واسم المرّة واسم الهيئة.. وبين خُلُوِّ اللّغة الإنجليزيّة من الأوزان القياسية؟ اللهمّ.. لا.

أرأيتَ أخى القارئ، بعد تناولنا المقتضب للفرق بين العربيّة والإنجليزيّة فى الإملاء والاشتقاق والأوزان الصرفية.. أن العربيّة متفوّقة بوضوح على الإنجليزيّة؟ ولهذا ..حُقّ للعربية أن تكون (إلهامية) وأن تَشْرُف بفهم القرآن العظيم.

ثم.. أرأيتَ من كل ما سبق حول اللّغات.. أن اللّغات تتفاوت تفاوتا بيّنا فى مستوياتها؟ فهناك لُغات فقيرة بدائيّة ولُغات غنيّة حضاريّة؟ وأنّ أغنى اللُّغات قاطبةً إنما هى اللّغة العربيّة الفصحى، لأنها لُغة القرآن المعجز.. أنواعا مختلفة من الإعجاز فى مُقدّمتها الإعجاز اللّغويّ. ولا يكون إعجازٌ لُغويٌّ فى لُغة من سائر اللُّغات؟ كما فى اللغة العربية الفصحى.اللهمّ إن اللّغات تتفاوت وأنّ أرقى لغة فى خصائصها إنّما هذه اللّغة العربيّة التى فضّلها الحق تعالى على جميع اللُّغات فقال – عزّ من قائل ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل – ١٠٣] فميّزها بتقدمها فى الإبانة على جميع اللغات.

ولكن هنا نقف فى مُناقشة الأفكار فى هذا الكتاب. ولكنّنا سنستأنف الحديث فى مقالة أُخرى حول لغة الكتاب.

الموضوعُ الثالثُ

العربيّةُ والتعريبُ فى العصرِ الحدَيثِ[1]

لغةُ هـذا الـكـتـاب

هـذا العنوان هو عنوان كتابٍ لأسـتاذنا الدكتور عبد الكريم خليفة. وفى مقالة سـابقة تحدّثنـا عـن أفكار الكتاب، مُوافقين أحيانا ومُعارضين أحيانـا أخرى. أمّا فى هذه المقالة فسنتحدث عن لغة الكتاب، ولغته لغة مُشرقة.

ولكن يُحسـن أن نذكر أنّ الأساليب المُشرقة تتفاوت. فالأساليب المُشرقة درجات، كما أنّ الحلال درجات، وكما أنّ الحرام درجات، مثلا أسلوب الجاحظ فى القديم وأسلوب طه حسين أو أسلوب الرافعى أو أسلوب المازنى فى العصر الحديث.. تأتى فى الذّروة – على تفاوت بينها– ثم تنزل الأساليب المُشرقة درجةً درجةً حتى يُخالط أدناها درجة الأساليب غير المشرقة أو يقف على التّخوم.

ولـدى قراءتـى لهذا الكتاب تبـيّن لى أن بعض الكلمات تدفع الباحث إلى مُناقشـتها. فلْنتناولْها واحدة واحدة:

١ – يقول المؤلف: «نظرا لما نعوّله من أهميّة قُصوى على المعاجم» ص٦.

وأرى أنّ الصواب: «لما نعوّل عليه من أهميّة قُصوى» يقول لسـان العرب لابن منظور: «وقد عوّل به وعليه، وأعول عليه وعَوّل. ويقال: عوِّل عليه (فعل أمر) أيْ: استعنْ به».

٢ – «وقد استطاعت هذه الدراسات أنْ تُبيِّن الصّلة الحيويّة بين اللّغة، من حيث هى لغة، وبين أفكار الناس وأحاسيسهم وأعمالهم. وبعبارة أُخرى، فقد استطاعت أنْ تبيّن أنّ اللّغة ليست أداة للتعبير فقط» ص١١.

وأرى أنّ (فقطْ) غير مسـتوية فى موضعها. واللفظة المسـتوية هى (فَحَسْـبُ). لأن (فقطْ) تُسـتعمل مع العدد أمّا (فحسب) فتستعمل مع الأشـياء المختلفة. نقول: اشتريت هذا الكتاب بخمسة دنانير فقط. ولكن نقول: لا أكتب القصة القصيرة فحسبُ، وإنما أكتب الشعر كذلك.

٣ – «وتظلّ اللّغة الوسـيلة الرئيسـيّة للاتصال. ومن ثَمّ للتأثير فى الإدراك بنحو تَذَكُّرِ الماضى عند الفرد والجماعة ووعْيِها بالحاضر، وتوقعهما وتنبُّؤهما بالمستقبل» ص١٣.

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٠م.

وأرى أنّ الإمـلاء الصّحيح هو: «وتنبُّئِهمـا» أى: تقع الهمزة على نبرة. لأنّ (تنبُّوا) لم تـأتِ وحْدها غير متّصلة بالضّمير حتـى تكتب على واو.. وإنْ كانت الكلمة مجرورة لأنها معطوفـة على مجرور وهو (تذكّر) – بكسـر الراء – لأن هـذه الكلمة مضاف إليه مجرور. أمّا المضـاف فهـو (نحو) المجرورة أيضا بالباء. أمّا عندما يقترن بها الضمير (هما) كما هى فى النصّ.. فإن الكسرة التى حُرِّكت بها الهمزة تغلب الضمّة التى حركت بها الباء السابقة على الهمزة. لأنّ أقوى الحركات الكسرة ثم تليها الضمّة ثم تليها الفتحة ثم السكون.

٤ – «فاللّغـة العربيّة تتميّز بعناصر أساسـيّة فى بُنيتهـا الصرفيّة والنحويّة تجعلها.. مطواعة» ص٢٠.

وأرى أنّ الصـواب: «تجعلهـا.. مطواعا» أى: بحذف التاء المربوطة. لأنّ وزن (مِفعالٍ) يستوى فيه المُذكّر والمُؤنّث، نقول: رجل مطواع وامرأة مطواع. قال الشاعر:

رَبَّةُ الحُسْنِ ومِكْسالُ الضحى أحـوَرُ الـمُقـلـةِ كالرِيمِ الأغَنْ

فقال (مكسـال)، ولا تتّصل التاء المربوطة بوزن (مِفعالٍ) إلا.. للمُبالغة كقولنا: هو رجل مِطْواعَةَ أيْ: مُبالِغٌ فى الطاعة. وعندئذٍ يجوز أنْ نقول: امرأة مطواعة. كما نقول للمبالغة: رجل علامة وامرأة علامة. والسياق هنا ليس سياق مبالغة. لماذا؟

لأنّ موقف المؤلّف العامّ هو أنه «ليست هناك لغة أفضل من لغة بحدّ ذاتها»– كما ورد هـذا النصّ فى المقالة السـابقة. ص٢٠. وإذن، لا تفاوت بين اللُّغات عنده. وعلى هذا فلا توصـف لغـة – فى حين ليس من تفاوت – بأنها مطواعـة وأُخرى بأنها مطواع. لأننا لا نقول: رجل علاّمة ورجل علاّم ورجل عالم إلاّ لأنّ العلاّمة هو أعلاهم فى العلم يليه العلاّم ثـم يأتى أخيرا العالم. فلولا «التفاوت» فى العلم لمـا وُجِدَتْ هذه الصّفات الثلاث المتفاوتة ولاكتُفى بصفة واحدة هى عالم.

أمّـا أنـا فأومن أنّ بين اللُّغـات تفاوتا، وأنّ أعلى اللُّغات فى القـدرة على التعبير هى «العربيّـة» الفصحـى. حتى الإنجليزيّـة لا تُجاريها فى ذلك. وقد أكّـدت هذا فى المقالة السّابقة. وقد دلّلت عليه بثلاثة أمثلة، ونزيد الأمر وضوحا هنا بثلاثة أمثلة أُخرى.. الأوّل منها سبق، ولكن نزيده هنا تفصيلا، وهذه الأمثلة هى:

(أ) إنّ اللّغـة العربيّة هى لُغة «الاشـتقاق» لا تُجاريها فيه لغة أخرى: فالعربيّة تولّد من الأصل اللّغوى عشَرَةَ مُشتقّات أو أكثر. مثلا كلمة (كَتَبَ) يشتقّ منها: يكتب، كاتِب،

مكتـوب، كَتّاب – بفتـح الكاف – كُتّاب – بضم الكاف، مكتبة، كُتب، كَتَبه، مكتبة، مكتـب، كتيبـه، كتْتب – بسـكون التاء – كتابة، ثم نشـتقّ من الفعـل (كتب) الفعل (كاتبَ) والفعل (تكتّب) – بتشديد التاء الثانية – والفعل (تكاتب) والفعل (أكْتَبَ) والفعل (استكتب).. الخ. ثم نشتق من كُلٍّ فعل من هذه الأفعال مجموعة كبيرة من الصيغ المشتقّة؛ نشتقّ منها للمعانى التى ستحدث، مما يجعلنا نقرّر بأنّ العربيّة قادرة على مجاراة التطوّر، لأنها قادرة على توليد الألفاظ واشتقاقها لكلّ المعانى التى تستجدّ.

فـإذا نظرنا إلى اللّغة الإنجليزيّة المنتشـرة فى ثلاثة أربـاع المعمورة التى يظنّ الجاهلون بالعربيّـة أنهـا تتقدّم على العربيّـة.. وجدناها غير قادرة على مُجـاراة العربيّة ووجدناها مقصوصة الجناحين فى الاشـتقاق. ولكى نُوضّح ذلك ننظر فى مادّة الفعل السّـابق (كتب) وهو (wrote) فنجد أنّ الكلمات التى تشـتقّ منه لا تزيد على أربع كلمات هى: (write ثـم written).. ثم (writer ثم writing). وهى على التّوالى: يكتب، مكتوب، كتابة، كاتـب. فـإذا بحثنا عن لفظة (مكتب) لم نجدها من نفس المـادّة وإنما هى كلمة جامدة لم تشـتقّ من فعـل وهى (office) وما اشـتقّ منها لم يكن من مجال معناهـا، وهما كلمتان (officer) وتعنـى ضابطا ثم كلمة (official) وتعنى: موظّفا. وقد يكون بين الكلمة الأولى (مكتـب)، والكلمة الثالثة «علاقة» مـا.. لأنّ الموظف يجلس على المكتب، فالعلاقة علاقة ترابط مكانيّ، ولكنّك لا تجد مثل هذه العلاقة بين الضّابط وبين المكتب.

فـإذا بحثنا عـن لفظ مكتبة وجدناها لفظـة جامدة (=مُرتجلة) كالكلمة السـابقة وهى (library)، ووجدنا من مادّتها سـتة ألفاظ لا تمتّ إلى معنى المكتبة بصلة وإنما هى تعنى الحريّة ومُشتقّاتها. فإذا نظرنا فى صيغة (كتاب) وجدناها تأتى من مادة أُخرى جامدة هى (Book)، ولها معنى آخر هو: يرتب لعمل شـىء – ما– فى المسـتقبل. ولا يشـتق منها إلا كلمتـان؛ إحداهما تعنـى الكُتيّب والأخرى تعنى الاعتناء بالنظافة فى المكاتب والمطاعم والمسارح..

فـإذا نظرنا إلى صيغة: كَتّاب – بفتح الكاف – وهى صيغة مُبالغة من: كاتب وكُتّا – بضـمّ الكاف – وهى اسـم المـكان الذى يدرس فيه الصغار، وجدنا قد اشـتُقّ الاسـم من الكتب والكتابة.

وهكـذا تـرى أنّ الألفاظ العربيّة التى اشـتقّت من الفعـل (كَتَبَ) تبلـغ فيما أوردناه ثمانيَ عشـرَةَ صيغة، وتبلغ عند إحصاء المشـتقّات من الأفعال المزيدة المشـتقة من الفعل

(كَتَبَ) العشـرات. أمّا فى الإنجليزيّة فقد توزع ما ورد من مُشـتقّات الفعل الثلاثى وَحْدَهُ على بضعة أبواب، وبعض هذه المشـتقّات لم نجد مقابلا له فى الإنجليزيّة حتى وإنْ كان يرجع إلى موادّ مُختلفة.

أصحيح أنّ لغة هذا شـأنُها فى توليد المُشـتقّات تساويها لغة أُخرى كَزّةُ الاشتقاق تكاد تكون عقيما فى توليد المشتقّات؟

(ب) إن اللّغة العربيّة قادرة على توليد «صِيَغ» بقدر صيغ الغائبين المذكّر منهما والمؤنّث، وللمُفـرد والمُثنى والجمع، مذكّرا ومؤنّثا. وليس كذلـك اللّغة الإنجليزيّة، بل هى «جامدة» علـى صيغة واحدة فى المُفـرد والمُثنى والجمع، مُذكّرا أو مُؤنّثا، مثلا.. الفعل «تكلّم».. فى العربيّة نقول: الرجل تكلّم – المرأة تكلّمت – الرجلان تكلّما – المرأتان تكلّمتا – الرجال تكلّموا النساء تكلّمن. أما فى الإنجليزية فنقول:

- The man spoke – the woman spoke.
- The Tow men spoke.
- The Tow women spoke.
- The men spoke – The women spoke.

أمّا ترى أن ثمّة فرقا هائلا بين لُغة تَجْمُدُ على صيغة واحدة للفعل= (spoke) مع المفرد والمثنّـى والجمع، مذكّـرا ومؤنّثا، ولغةٍ تأتى بتغيير على الصيغة الأصليّة مع كلٍّ من المفرد والمثنّى والجمع، مذكّرا ومؤنّثا، أيْ: تأتى بصيغة جديدة لكلٍّ منها؟

إن اللّفظ «الصيغة» يتبع المعنى، وليس العكس، كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجانيّ فى كتابه: دلائل الإعجاز. وهو على حقّ. ولذلك فاللّغة التى تشتقّ صيغة لكلّ معنى غالبا هى، مُتقدّمة بمراحل على اللّغة التى لا تستطيع مثل هذا الاشتقاق وهما كالسيّدة –الوَلودِ– والسيدة – المِقلاتِ[1] – هل يستويان؟.

(ج) إنّ مـن مقاييس رُقيّ اللّغة قدرتَها علـى التعبير عن المعانى الدقيقة وقدرتها على تقديم الأهمّ على المهمّ وتقديمها على ما هو تكملة ليس أكثر. فالعربيّة فى هذا المجال أقدر من الإنجليزيّة بوضوح، كما كانت أقدر فى المجالين اللذين عرضنا لهما سابقا.

مثلا.. المتنبّى قال:

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطَّوى ولا تُـتّقى حتى تـكـونَ ضَـواريـا

(١) المِقلات – القليلة النسل.

فإذا أخذنا الشطرة الأولى.. وجدنا الشاعر قد قدّم المفعول به (الأُسْدَ) على الفاعل (الحياءُ)، وذلك لأنّ (الأسدَ) أهمُّ عنده من (الحياء) لأنه كان قد غادر سيف الدولة الحمْدانيّ على أثَر خلاف بينهما. وكان ينطوى فى «شعوره اللاّواعي» أنه لو كان قويًا لما فارق سيف الدولة.. مهزوما، بل لشنّ عليه حربا ينتقم بها منه. ولهذا.. كانت القوّة شيئا مهمّا عند المتنبى. ولا شكّ أن الأُسْدَ هى أحد «تجسُّدِ» مظاهر القوّة. ولذلك كان موضعه فى نفسه متقدِّما، وكان فى خياله بارزا. ولهذا.. كانَ شيئا يتّفق مع حالته النّفسية أنْ يقدّمه على الفاعل الذى يتقدّم على المفعول به فى الظروف العادّية.

– ولكنْ لو أنّ أولويّات نفس المتنبّى تغيّرت مع الأيام، أو لو أنّنا وجدنا للحياء فى أنفسنا أهميّة أكبر من أهميّة الأُسدَ، لأنّ الناس لم يعودوا يعايشون الأسود، صباحَ مساءَ، ولأنّ الحياء، كقيمة أخلاقية، قد أصبح له رصيد أكبر من المشاعر والأحاسيس فى نفوس الناس – عندئذ يمكنّنا فى العربيّة أن نقول نثرا: «فما ينفع الحياءُ الأُسدَ من الطوى» أو: «فما ينفع الحياءُ من الطوى الأُسدَ». وهذا يعنى أنّ العربيّة قادرة على تغيير ترتيب الألفاظ عندما تتغيّر «أولويّات» المعنى مع المُحافظة على المعنى العام.

– بَيْدَ أن الإنجليزيّة غير قادرة على ذلك.. فالألفاظ يُضَمُّ بعضُها إلى بعض بترتيب خاصّ لا يمكن تغييره، وإنْ تغيّرت أولويّات المعنى! ففى شطرة المتنبى السابقة يأتى الترتيب هكذا، فى الإنجليزية:

The shame does not benefit the lions from hunger.

ولا يمكن تغيير هذا الترتيب، مهما تغيّرت أولويّات المعنى فى النفس. إلا.. إذا انتقلنا إلى المبنى للمجهول. ولكنّ هذا باب آخر غير باب المبنيّ للمعلوم.

– أفليست اللّغة التى «تَجْمُدُ» على ترتيب واحد للألفاظ مهما تغيّرت أوْلَوِيَّاتُ المعنى فى النفس هى أدنى بكثير من اللّغة التى تلبس لكلّ حالة لَبُوسَها.. التى تستطيع أن تُعبِّر عن دقائق المعنى، وأدقّ خلجات النفوس؟ – هى أدنى– حقا– واللغة المتموجة التركيب – لتمُّوجات النفس– هى أعلى حقّا؟

٥ – بعد هذه الجولة نعود إلى المناقشة اللغويّة:

يقول المؤلِّف: «وما لبثت موجة الاستعمار الأوروبيّ أنْ بدأت تهب عاتيةً تثير حملاتها الصّليبيّة من جديد، مستخدمةً الوسائل إياها من قُوى عسكرية ضخمة..: ص٣٧.

وأنا أرى أنّ الصّواب هو: «مستخدمةً الوسائلَ نفسَها» بدل: إيّاها. لأنّ التوكيد لا يقع بضمير النصب (إيّاها) أو غيره من ضمائر النصب، فليس ضمير النصب من التوكيد.. المعنويّ[1]. أمّا كلمة (نفسها) فهى أحد أسماء التوكيد المعنويّ. ومثلها: العين وجميع وعامّة وكلا وكلتا وكلّ. إنّ (إيّاها) ومثيلاتِها من ضمائرَ، لا تقع إلاّ مفعولا به. كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ « [الفاتحة: ٥] و(إيّاها) لا تختلف عن (إيّاك).

٦ – «فطُرحت قضيّة تدريس العلوم باللّغة الإنجليزيّة، والاتّكاء على الاستثناء.. مُتذرِّعين – بشتّى الذّرائع – » ص١١٨.

وأنا أرى أنّ «شتى» لا تأتى مُضافا. وإنْ كنّا نسكت عليها، مضافةً، عند المبتدئين. لقد وردت فى القرآن ثلاث مرّات: فى الأولى كانت صفةً وهى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه: ٥٣]. وهى هنا.. صفة لـ (نباتٍ). وفى الثانية

كانت خبرا وهى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝١٤﴾ [الحشر: ١٤] والموصوفون هم اليهود. وهى خبر لـ «قلوب». وفى الثالثة كانت خبرا لـ (إنّ)، واللّام الذى اتصل بها هو لام التوكيد، وهى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: ٤].

وإن كان قد كثُر استعمالها كمُضافٍ، حتى صار التّسامح معها بهذه الصورة.. أمرا مقبولا.. يمكن أن يُمرّر.

٧ – «هذا كلّه يستلزم عمليّةً – دؤوبةً – هادفة» ص١٩٢.

وأرى أنّ الصّواب «عمليّةً دؤوبا» أيْ: بحذف التّاء المربوطة، لأنّ الصّفة التى على وزن (فَعول) وتكون بمعنى اسم الفاعل (وليس اسم مفعول) يستوى فيها المُذكّر والمُؤنّث. لأنّ دؤوبا بمعنى (دائب). ومثلها (صبور). نقول: رجل صبور وامرأة صبور. لأنها بمعنى صابر. أما لماذا يستوى فيها المُذكّر والمُؤنّث؟ فإنّ السبب هو أنه «عُدِلَ» بها عن اسم الفاعل إلى وزن (فَعول). والتّسوية بين المذكر والمؤنث، جاءت بسبب العَدْل. لأنّ العدل يُطرئ تغييرا على الحروف أو الحركات، أمَا ترى أنّ اسم (عُمَرَ) مُنع من الصرف، لأنّه عُدل به عن (عامر)؟

٨ – « وطالما – نحن بصدد الحديث عن (النصوص) العلميّة: القديم منها والحديث.. نجد من الواجب أنْ نشير إلى قضيّة فرعيّة» ص ١٩٦.

---

(١) سميته فى كتابى: [الرؤى النحوية] – التوكيد بألفاظ معلومة – ١٨٠/٣– لأن كلمة المعنوى التى اصطلح عليها النحاة .. ليست تعبيرا دقيقا عن هذا اللون من التوكيد بالألفاظ: نفس – عين – كل – كلا – كلتا.

وأرى أنّ (طالما) لم تقع موقعها. لأنها بمعنى (ما أطولَ) وليست بمعنى «التعليل». نقول «طالما قرأنا فى كتب اللّغة، إذ كان بدءُ اطلاعنا عليها قبل خمسة وأربعين عاما». أيْ: ما أطولَ ما قرأنا. أو لقد قرأنا طويلا فى كتب اللّغة. والسِّياق الذى وردت فيه هنا سياق تعليل. أىْ: – ولأنّنا – كنّا بصدد الحديث عن النُّصوص العلميّة ..) فهنا كلمة التعليل التى تصحّ هى (ولأننا).

٩ – «و – سوف لا – أقف عند اللّغة الأدبيّة، ولا أخشى على وحدتها.. إذْ أنّ النصّ القرآنى كفيل أبديٌّ بتوحيد اللّغة الأدبيّة» ص٢١٠.

وأنا أرى أنّ قولنا: «ولن أقف..» أولى من قول المؤلِّف: «وسوف لا». لأنّ (لن) وحدها تُغنى عنه. ولا شكّ أنّ البلاغة فى «الإيجاز» فإذا كانت لفظة تغنى غِناءا تامّا عن لفظتين كان استعمالها أوْلى. يدلّك على ذلك أنّ الحقَّ تعالى قال: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. فإبراهيم – عليه السلام – فاعل. ويعقوب – عليه السلام – فاعل. فلماذا لم يتوال الفاعلان، وإنما قُدِّمَ إبراهيم وأُخِّر يعقوب إلى ما بعد المفعول به؟ لقد وضحنا جواب هذا السؤال فى المقالة السابقة.

وجوابه هناك يعنى أنه يجب علينا أنْ نختار دائما العبارة الموجزة على العبارة الطويلة، والكلمة الواحدة على الكلمتين، إذا كان هذا الإيجاز يؤدّى المعنى المقصود، وعلى هذا.. فنحن نُقدِّم «لن» على «سوف لا» لأنها على إيجازها تؤدّى المعنى الذى تُؤدّيه عبارة «سوف لا» تمام الأداء. إنّ «لن» تعنى نفى المستقبل، وإن «سوف لا» لا تزيد على أنها تعنى نفى المستقبل، فأيُّهما نستعمل، إذن، مع الفعل المضارع لنقلبه إلى النفى والاستقبال؟ أحسبُ أنّ (لن) هى الأَوْلى، إن لم تكون هى الواجب استعمالها، دون غيرها من الصِّيَغ.

١٠ – «فإنّ وضع الكلمات الحديثة فى اللّغة يجرى بصورة – رئيسة – إمّا على طريقة الاشتقاق، وإما على طريقة التعريب. وقد يُجمع بينهما» ص ٢٢٦.

وأنا أرى أنّ الصّواب «رئيسيّة» بإثبات ياء النّسبة. أىْ: « بصورة رئيسيّة». لأنه لا يوصف بالرّئيس أو الرئيسة – دون ياء النّسبة إلا الإنسان والحيوان، نقول: رئيس مكتب ارتباط الجامعة أو – فى التّأنيث – رئيسة مكتب ارتباط الجامعة. لأنّ كُلاً منهما

يرأس المكتب حقّا. ونقول: كلب رئيس، ونعجة رئيسة. لأنّ الكلب يقود الكلاب ويرأسها إلى حدٍّ ما، ولذا يمكن أنْ نُشبِّه رئاسته برئاسة الإنسان فهو رئيس من باب – المجاز– .. ولأنّ النعجة تشبه الكلب في رئاستها للنعاج، إذْ يوضع في عنقها جرس فتتقدّم هي النعاج.. فتكون رئيسة إلى حدٍّ ما «بحيثُ تُشبّهُ رئاستها برئاسة المرأة فهي رئيسة من باب المجاز كذلك . وهذا يُسوّغ.. بأن يوصف الكلب بالرئيس والنجعة بالرئيسة.

أمّا المعنويّات والجمادات.. فلا توصف بالرئاسة.. برئيس للمذكّر وبرئيسة للمُؤنّث. لأنّ المعنويّات والجمادات.. لا ترأس غيرها لا على الأصالة كالإنسان، ذكرا أو أُنثى، ولا على الشّبه بالحيوان، ذكرا وأُنثى، فالصورة – مثلا – التي نُعِتت في النّص (بصورة رئيسة)، لا ترأس سائر الصور. والفكرة، مثلا لا ترأس الفِكَرَ الأخرى. والنهرِ، مثلا، لا يرأس سائر الأنهار مهما كان ماؤه عظيما، والسيارة الفارهة، مثلا، لا ترأس سائر السيّارات الصغيرة.. أبدا.

وإذنْ، فالنهر ليس رئيسا والسيّارة ليست رئيسة، وإنْ كانا عظيمين. فغاية ما يُنْعَتا به أنهما رئيسيّان. أيْ: منسوبان إلى الرئاسة المتخيّلة، وليس الرئاسة الحقيقيّة كما يكون مع الإنسان، ثم بدرجة أقلّ مع الحيوان.

ولهذا نقول: نهر رئيسيّ، منسوب إلى الرئاسة المتخيّلة، وسيّارة رئيّسيّة، منسوبة إلى الرئاسة المتخيّلة، ولا ننعتهما دون ورود ياء النِّسبة معهما.

بل إنّ الإنسان نفسه لا يُنعت بأنه رئيس أو رئيسة إلاّ إذا كان رئيسا أو رئيسة لجماعة من النّاس حقا، وإلاّ وصف الرجل بأنه رئيسيّ، بإيراد ياء النِّسبة، ووصفت المرأة بأنها رئيسيّة، بإيراد ياء النّسبة كذلك، ولذلك.. نقول: زيد رئيسُ حزب النهضة، أمّا زياد فعضو رئيسيّ في الحزب، بإيراد ياء النّسبة، ننسبه إلى الرّئاسة نسبةً ليس غير، لأنه مهمّ، فهو الشخص الثاني أو الثالث في الحزب، ونقول: سلمى رئيسةُ اتّحاد المرأة، أمّا سُعاد فعضوة رئيسيّة فيه، بإيراد ياء النّسبة، ننسبها إلى الرّئاسة نسبةً ليس غير. لأنها العضوة الثانية أو الثالثة في الاتّحاد أمّا إذا قلنا : (زيد عضو رئيس) فلا يفهم منها أنه رئيس وعضو في الوقت نفسه. ومثله (سعاد عضوة رئيسة). وهذا .. تعبير خاطئ.

إذن، لا يوصف بالرئاسة، بدون ياء النّسبة، إلاّ من كان رئيسا أو رئيسة..»حقا. أو فيه مُشابهه من عمل الرّئيس كما في الحيوان. أمّا المعنويات والجمادات.. فتنسب نسبةً إلى

الرئيس أو الرئيسة، عن طريق ياء النّسبة. وإذن، قُلْ: «صورة رئيسيّة» بإيراد ياء النّسبة ليس غير.

وبعدُ: فهذه مجموعة من الأخطاء اللغويّة بلغت عَشْرَ كلمات. وهي لا تضير كتابا يقع فيما يقرب من ثلاثمائة صفحة. «وكفى المرءَ نُبلا أنْ تُعَدَّ معايبه». وتصويبي لها هو اجتهادات في اللّغة.. موجّهةٌ إلى الكُتّاب وإلى أبنائنا الشّباب ليتحَرّوا عندما يكتبون ويتجنّبوا الخطأ ما أمكن، عن طريق جَعْلِ أحد المعاجم «الرئيسيّة» – بإثبات ياء النّسبة – رفيق الكاتب والشّادي في الكتابة. والله الموفق.

obeikandl.com

الموضوعُ الرابعُ

الفُصحى والحضارَةُ وجريدةُ الرّأى

سَعِدتُ بقرار جريدة الرّأى السائرة، بأنّها لن تقبل إعلانات إلا باللّغة الفُصحى أو الفصيحة. وهذه خُطوة جريئة وموفّقة، تدلّ على انتماء القائمين عليها إلى لغتهم وحضارتهم التى امتدّت سِتَّةَ عَشَرَ قَرنا ولا تزال تعطى ثمارا يانعة، ولا سيّما فى مجال اللّغة المعبرة عن الأفكار والعواطف.

وهذه المقالة بمثابة شكر جزيل للقائمين على جريدة الرّأى، ودعم لهذا الموقف الشُّجاع، ومساهمةٍ فى إبراز ما فى الفُصحى من مقوّمات الحياة التى تجعلها قادرةً على مواكبة الحضارة، فهى لغة الاشتقاق الذى لا ينضَبُ مَعينُهُ على الدهر.. لقد اشتَقَّ العربُ من كُلِّ الكلمات، مصادر وجواهر وأفعالا وأسماءا جامدةً. كما عرفنا تَوضيح ذلك فى القسم الثالث، من هذا الكتاب.

لقد ضمتنى جلسةٌ مع مجموعة من أصحاب الرّأى، وجرى الحديث حول الفُصحى والعاميّات ومدى استيعاب الفُصحى للحضارة المعاصرة. فذكر أحدُهُم أن اللّغة العربيّة صعبة، بدليل أن المُتخصّصين فيها يلحَنونُ، على حينَ يذهب الطلاّب من عندنا إلى الغرب، ولا يقضون إلاّ بضع سنوات ثم يعودون يتكلّمون اللّغة الإنجليزية من دون أن يلْحنوا. فأجابه الدكتور محمود السمرة بأن ما تقوله ليس دقيقا؛ فالذين يعودون من الغرب هم يلحنون كثيرا، ولكن من يقوّمُ لحنهم؟ وأنا أقول: إنّ المتكلّم فى العربيّة عندنا يجد من يقوّمُهُ من كِبار المُتَخصّصين، ولكن المتكلم باللّغة الإنجليزية لا يجد مثل هؤلاء ليكشفوا عُوَارَهُ!

وأقول: الحقيقةُ أنّ الصعوبة فى اللّغة العربيّة لا تزيد على الصعوبة فى اللّغة الإنجليزية، وإن كانت لغتنا مُعْربةً واللّغة الإنجليزية غير مُعربة. والإعراب – كما أرى – يُسهِّل اللّغة ولا يُصعِّبها، لأن التركيب فى اللّغة المُعْرَبَةِ مَرِن – أما التركيب فى اللّغة غير معربة فجامد. لأنها تَحُلُّ المشكلة فى المعنى (التى تحلُّها اللّغة المعربة بالحركات) –تَحُلُّها بإضافة كلمات إلى التركيب، فالمضارع الكامل المستمرّ فى اللّغة الإنجليزيّة، مثلا، تؤديه

إضافة كلمة (has – أو – have)، ثم كلمة (been)، وليس من شيء من هذه الإضافات في اللّغة العربيّة، فكُلُّ كلمة في اللّغة العربيّة، في التركيب لها معناها. نقول:

I have been working for three years

ومعناها: أنا مستمّر في العمل لثلاث سنوات، فأين معنى (Have)، ومعنى (Been) سوى الدلالة على الزمن وأنّ الفعل قد تمّ؟ وقد أسلفنا في الموضوع أن لغتنا المعربة أدقّ المعاني، وأن غيرها من اللغات الجامدة على – ترتيب – واحد – غالبا – لا تستطيع أن تعبر عن أدقّ المعاني إلا بتطويل العبارة، وقد ضربنا على ذلك، مثلا، هناك.

وهذا.. يَرُدُّ على الدكتور سعيد التلّ الذى قال: إنّ هناك لغاتٍ قديمةً كانت مُعْربةً، ولكنّها مع الزّمن فقدت الإعراب، راويا ذلك عن أحد المحاضرين واللّغة العربيّة ستنتهى إلى هذه النهاية. روى ذلك مؤمنا بهذا القول. ويَرُدُّ عليه.. أنّ الإعراب مِيزةٌ للّغة كما ذكرنا آنفا. وأنّ هذا المُحاضر لا يُكنّ ولاءا للقرآن الكريم ولا القوميّة العربيّة، وإلاّ.. لما رأى أنّ العربيّة المُعْربة؛ لغةَ القرآن والعرب كافّةً، ستؤول إلى مآل اللّغات المُنقرضة. وكيف تنقرض والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، ولا رَيْبَ أنّ حفظ الذكر هو حفظ للغة العربيّة حيّة معربة وهو إحدى وسائل حفظ القرآن الكريم. ولا ريبَ أنّ كتابة العلماء المؤمنين في كُلِّ عصر، في هذه اللّغة العربيّة، ودفاعَهم المشَرِّفَ عنها.. هما من أسباب بقائها على العصور. وهم يهتمّون بها بالدرجة الأولى، لأنها لغة القرآن، أوّلا، والحديث النبوى، ثانيا، واللّغة القوميّة ثالثا.

وعندما رددْت على هذا الرجل، وقلتُ له: وماذا نفعل بالقرآن الكريم بعد تَخَلِّى الفصيحةَ عن الإعراب؟ .. قال: القرآن يبقى على إعرابه وعلى خطّه (رسمه) لا يمسّه أحد بسوء.

وهذا قَوْلُ مَنْ غُسِلَ دماغُهُ، في معاهد الغرب، من عقيدة الإيمان بالقرآن والولاء له. لأنّ المسلمين لا يريدون القرآن كتابا يُحفظُ داخل جلدة فاخرة، ويُعرضُ في أفخمِ المعارض؛ لا يريدونه كالإليادة والأودسّة، بعد أن انقرضت اللّغة اليونانية المعربة التى كتبتا بها.. لا يريدونه بلغة منقرضة يتخصّص فيها من كُلِّ مئةِ ألفِ شخص.. شخصٌ واحدٌ، كما يجرى التخصّص في اليونانية القديمة الآن. إنّهم يريدون القرآن أنْ يظلّ كتابا بلغة حيّة، يسمعه العاميُّ من المذياع أو التلفاز أو القاريء في المسجد، أو من أىِّ وسيلة أُخرى موجودة

الآن – كالانترنت – أو يأتى بها المستقبل.. فيتأثّر به ويخشع له ويزداد إيمانا. لأنّ اللّغة العربيّة مفهومة، فى البلاد العربيّة، حتى لدى العوامّ. أما ترى أنّ نشرةَ الأخبار تُذاع باللّغة العربيّة، فى أيّ قطر عربيٍّ، فيفهما العربيُّ فى أيّ قطر آخرَ من المحيط إلى الخليج؟ وكذلك يسمع القرآن أو يقرأه المُثقّف ثقافة متوسطة، فيفهم كثيرا من معانيه ويتأثّر ويخشع ويزداد إيمانا. ويسمعُهُ أو يقرأُهُ العالم فيتأثر ويخشع ويزداد إيمانا، ويضيف إلى ذلك قدرةً على تفسيره وتوضيحه للنّاس، والكشفِ عن بعض جوانب الإعجاز فيه، لغويّةً وفكريّةً.

إنّ القرآنَ كتابُ حياةٍ، كتابُ الإنسانية كافّةً: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠]. ولذلك.. يجب أن يظلّ بلغة حيّة يقرأها مئات الملايين من العرب خاصّةً، ومن المسلمين عامّةً، وتَسْهُلُ ترجمة معاينة إلى مليارات البشر. بل هو مكتوب بأعظم اللُّغات حياةً، فلا يُعقَلُ أنْ يُنزّلَ كتابٌ معجزٌ بلغة غير قادرة على حملِ هذا الإعجاز وتقديمه للنّاس كافةً. وهى لا تزال لغةً قويةً على الرّغم من ضِعف أهلها، فى هذا الزمان وهذا... ليس للغة غير العربية التى «ألهمها» الله تعالى العرب،– إلهاما.

قال حافظ إبراهيم على لسان الفُصحى:

وَسِعْتُ كتابَ اللهِ، لفظا وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آيٍ بهِ وَعِظاتِ

فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ ... وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ

وإلى جانب القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشريف، اللذين كُتِبا باللّغة العربيّة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ «[يوسف: ٢] أىْ: مُنزّلٌ بكلام يماثله كلام بالعربيّة الفصحى – فإنّ التّراث العظيم، فى جُلِّهِ، قد كُتب باللّغة العربيّة. وتراثُ الأُمة جزء من كيانها. ولذلك.. فإنّ الّذى عصمنا من أنْ نذوبَ فى المستعمر وفى الحضارة الغربيّة الانحلاليّة الغازية.. إنما هو القرآن الكريم والحديثُ النبويُّ الشريف، ثم التّراثُ العظيم الذى يمتدّ على مدى سِتّةَ عَشَرَ قرنا. بل هذه المصادر الثلاثة.. هى التى ستحمينا، عربا ومسلمين، من الانضواء تحت عقيدة العولمة الحديثة والذوبان فيها. إنّ العولمة هى عقيدة الغرب (أيديولوجيّتُهُ) المنحرفة المنحلّة.. مُحَوّلةً إلى سلوك ثقافيٍّ وسياسيٍّ واقتصاديٍّ واجتماعيٍّ، أو مُنبثّةً فى هذه الأنواع الأربعة.. غازيةً الشعوبَ والقوميّاتِ والعقائدَ الأُخرى، محاولة إزاحة عقائدها وثقافاتها والحلول محلّها.

لعلّك ترى عِظَم الخسارة التى يُمْنى بها العرب خاصةً والمسلمون عامّةً، لو أُزيحت اللّغة العربيّة الفصيحة من الطريق. إنهم سيخسرون هذا التُّراث العظيم الصالح للحياة فى معظمه الذى يحفظ عليهم هُويتهم وكيانهم ومقوّمات وجودهم، لأنه مُنبثق عن المصدرين الرئيسيّين فى الدين الإسلامي؛ القرآنِ الكريم والحديثِ النبوىّ الشريفِ.- القرآن الكريم .. المنغمس فى الزمان والمكان – والمستعلى علىَ الزمان والمكان.

وقد أثار آخرُ أنّ العامية ستحلّ محلّ الفُصحى مع الأيام، فنقول له: إنّ فى العاميّة، سواءٌ أكانت هذه أم تلك، من الصعوبة مثلَ ما فى اللّغة الفُصحى. لأنَّ العاميةَ، إذا أُريد لها أنْ تكون لغة المعارفِ والعلوم، إضافةً إلى كونها لغةَ المجتمع، لابُدّ من أن «تُثَبّتَ» بحيثُ يفهم الجيلُ اللّاحق ما ينتجه الجيل السّابق. وبغير التثبيت سيصبح لكُلِّ جيلٍ لغته العامية. لأنّ العامية لا تُثبُت على حال، لأنها غير مُقنّنَةٌ بقواعدَ تضبطها، أما ترى أنّ المُسنّين الذين جاوزا الثّمانين يتحدّثون بلهجةٍ تتفاوت كثيرا عن لهجة أبناء العشرين؟ وتثبيت اللهجة يعنى وضعَ معاجم لها تحفظ كلماتها وكتبَ نحوٍ تحفظ أنماطَ التراكيب فيها، وكتبَ صرفٍ تحفظ تقليبات بِنْيَةِ الكلمة – فيكون فى تعلم هذه العلوم من الصعوبة ما نجده اليوم فى معاجم الفُصحى ونحوها وصرفها! أما كانت الفُصحى فى الجاهلية لهجةً (أو لهجات متقاربة) يتكلّمها النّاس بلا صعوبة، ولكن عندما اختلط الأجانب بالعرب، واحتاجوا إلى تدوين العلوم، وجدوا أنَّ هذه اللهجة يطرأ عليها تغيير أيْ: يقع اللّحن فيها من بعض المتكلّمين فرأى العلماء أنّها إذا أُريد لها أنْ تَثبُتَ، فتصبحَ لغة العلوم والمعارف التى تنتقل من جيل إلى جيل، دون تغيير يُذكَرُ، وتحفظ القرآن كما نزل من عندَ ربِّه.. فلا بدّ من وضع معاجمَ لها، ومن وضع كتب نحو وصرف تحفظ أنماطَ التّراكيب من التغيير، وتقليبات بنية الكلمة من الانحراف. وهكذا.. كان- طبعا.. هذا لا يعنى أن العربية الآن ذاتُ صعوبة عالية، ولكننا أشرنا للصعوبة- قبْلُ – لكى نُقَرر أن الصعوبة التى نجدها فى تعلم الفصحى – الآن- سنجد مثله فى العامية لو عتمدت – لغةً.

ومما يُسْتَدَلُّ به على ذلك أنّ اللّهجات التى انبثقت عن اليونانيّة، كالإيطاليّة، والفرنسيّة، عندما أصبحت لغاتٍ مستقلةً، وصارت لغات المعارف والعلوم.. وُضِعَ لها معاجم، ووضع لها كتب نحو وصرف.. وأصبح تعلّمها لا يقلُّ صعوبة عن تعلُّم اليونانية نفسها، وخاصة لغير أبنائها.

وإلـى جانب ذلك.. فـإنّ اللّهجة، أيّ لهجة، أقلُّ مفـردات قلةً واضحة، من اللّغة العربيّـة الفُصحى. ففى العربيّة اثنتا عَشْـرَة ألفَ مـادةٍ (١٢) ألفا – كما ورد فى مُعجم لسان العرب

– فإذا اشـتُقّ من كل مادة عَشْـرُ مفرداتٍ فقط كان فى الفُصحى مئةُ ألفٍ وعشرون ألفَ مفردةٍ، (١٢٠) ألفا على حين لا تحتوى العاميّةُ أكثرَ من ثلاثين ألفَ مُفردةٍ، فى أحسـن حالاتها. لأنها ليست لغة الفكر والعلوم لتنموَ مع الأيّام، وإنّما هى لغة الحاجات اليوميّة المحدودة. ولا شـكّ أن كثرة المُفردات مـن الجوانب التى يُقاس بها غنى اللّغة، لأن كثرة المفردات تساعد على استيعاب الأسماء المستجدة فى الحضارة، سواءٌ فى العلوم أو المخترعات وعلى اسـتيعاب الأفكار الجديدة. وعلى هذا.. يتّضحُ أننا سـننعزل عن العالم، لو أُصيب العـالم العربى بالـدُّوار والعقم وأحلّ اللهجة محلّ اللّغة الفُصحى، بل لو أحلّ «اللهجات» محلّ الفُصحى.

والحقيقـة أنَّ العربيّة الفُصحى بخير، وأنّها سـائرة نحو التقـدُّم والنُّموّ، على خلاف ما يراه المُتشـائمون، فنحن نسـمعها من المذياع والتلفاز، فى نشرات الأخبار، وفى بعض المُسلسـلات، ويفهمها – منّا – معظم فئات الشعوب العربيّة. صحيحٌ أن العاميّةَ مسموعةٌ فـى هذين الجهازيـن، ولكنَّ وجودها فيهما لا يُلغى الفُصحى، كمـا أنّ سماعَ الإنجليزيّة منهما لا يلغى الفُصحى. كُلٌّ لها وجودها الذى لا يلغى وجود الأخرى. وهذا لا يعنى أننا لا ندعو بشدة إلى تقليص العاميّة فى الإذاعة والتلفاز، وإحلال الفُصحى محلّها. نحن ندعو إلى ذلك بإلحاح ولكن – يكفى تقليص سـاعات العامية، فليس من لغة ليس لها فصحى، وعامية « يُفَضّل أن تكون قريبة من الفصحى وهذا يكون مع نموّ التعليم، وتقدم الحضارة.

ثم نحن نقرأ الفُصحى فى الجرائد والمجلات، كلَّ يوم، وفى الكتب والمطبوعات الأُخرى، مما يُسَهِّلُ سيرورتَها بين النّاس، ويُساعد على انتشارها وعلى نموّها نموّا من الداخل بالدرجة الأولى. مئـات الجرائـد تصدر بها كل يوم، وآلاف المجلات، كل شـهر ومئات الآلاف من الكتب، كل سـنة. وإن لغةً.. هذا شـأنها – إضافة إلى الخصائص الأخرى– التى أسـلفنا ذكرها، خلال ما مضى من هذا الكتاب – هى لغة مؤهلة للاستمرار، والبقاء والخلود.

ثم نحن نسمع ما يسمّى اللّغة الثّالثة، فى المُحاضرات والنّدوات والمدارس والجامعات.. الخ واللّغـة الثّالثـة هـذه.. هى مُحاولة للاقتراب مـن الفُصحى فى المفـردات والتراكيب

(من – الفُصحى التى تُقرأ فى الصُّحف والمجلات،) وللابتعاد عن العاميّة، شيئا فشيئا، حتى يأتى يوم تحوى فيه هذه اللغة الثلاثة معظم مُفردات الفُصحى وتراكيبها، وتُصبح وسيلة لتسهيل تَعلُّم الفُصحى على العربيّ الذى تقترب لهجتة (اللّغة الثّالثة) من الفُصحى اقترابا شديدا وهذه اللغة الثالثة.. تُضْحى هى العامية– اللصيقة بالفصحى. شأن اللغات الحية المتحضرة.. كالإنجليزية.

إنّ عامّةَ النّاس لا يفرّقون بين الفُصحى – اليوميّة – فى التلفاز والمذياع والجريدة والكتاب التى هى لغة العرب كافّةً، إذْ يفهمها كلُّ العرب، وبين الفُصحى الأدبيّة التى تضمُّ الشعر والمقالة الأدبيّة والقصة والرّواية والخاطرة الأدبيّة. فهذا مستوىً من اللّغة مكثّف، فيه المجاز والتأنُّق فى العبارة.. مما يجعل فهمه والاستمتاع به يتطلب جُهدا خاصا وثقافةً عاليةً. وهذا المستوى يقرأه ويُعْنى به المُثقّفون والعلماءُ، وليس عامةُ الناس.

إنّ اللّغة الفُصحى سائرةٌ منتشرةٌ، وهى التى تحفظ لنا قرآننا حيًا، دستورا لحياتنا، وتحفظ لنا عروبتنا المُتجذّرة فى التاريخ. وتحفظ كذلك الحديث النبويّ الشريف، وتحفظ لنا صِلتنا حيّةً قويةً، بتراثنا العظيم الصالح للحياة فى معظمه. وهى القادرة – إذا أخلص أبناؤها لها – على استيعاب الحضارة المعاصرة، كما استوعبت حضارةَ اليونان فى القديم، عندما كان العرب المسلمون سادةَ المعمورة[1]، والله تعالى المستعان.

---

(١) ليس العملية من استيعاب الحضارة والعلم.. استيعاب المصطلحات العلمية، فى كل مجال، لأن الحضارة تجود كل يوم بمصطلحات جديدة، تعجز أىُّ لغة عن استيعابها. وليس من اكتمال شخصية اللغة استيعابها، لأن اللغة المعتبرة– كعامل مهم من عوامل – ترابط الأمّة الواحدة، وأحيانا ..أصحاب الفكر الواحد – هى لغة الفكر والثقافة والأدب.

الموضوعُ الخامسُ

الخطأ والصّواب والاجتهاد فى اللّغة[1]

قرأتُ حديثا مقالة تحاول أن تُبَيِّنَ وجه الصّواب فى الكتابة فى اللّغة. وقد وجدت – من وجهة نظرى – أن معظم ما قالته يمكن دحضُهُ وأن كاتبها وهو – الدكتور مصطفى الفار . اعتمد التَّهويش، وإطلاق الأحكام التى لا يدعمها «منطق» أو «تحليل» وكنت أنا المقصود، فى مقالة الدكتور الفار. وفيما يلى البيان:

١ – يقول الكاتب: لم أشـأ فيما مضى أن أكتب فى هذا الموضوع، انطلاقا من هاجس الإحسـاس بأنّى أتقصّد الردّ على أحد أنه هو – وَحْدَهُ – الحكم الفصل فى صواب اللّغة أو خطئها.

أقول: لم أقل ولا مرة واحدة، (وأنا أكتب منذُ عام كلمةً لغويةً مرتين فى الأسبوع، فى جريدة الدستور الأردنية السائرة) إننى الحكم الفصل فى صواب اللّغة أو خطئها. ولا يعلن ذلك للملأ عاقل. وإنما أنا متخصص باللّغة، فأجتهد فى تصويب كثير مما خطّأه اللغويون، ولا سيما فى العصر الحاضر، أفعل ذلك «تيسيرا» على الناس، فى حدود ما أجد له وجها فـى العربيّـة وإحقاقا لما أراه حقّا، لأن الحـق لا يتجزأ، فى اللغة كان أو فى الدين أو فى غيرهما. ثم.. أُخطِّئ بعض الاستعمالات.. نادرا.

وإذا وجدنـى كاتـب المقالة أننى قلت، ولو مرة واحدة، أننى الحكم الفصل فى صواب اللّغة أو خطئها – فعليه أن يذكره، ليحوّل ادعاءه إلى حقيقة لها شاهدها. أمّا رمْيُ الناس بالتّهم من غير دليل فهو يكشف عن طراز هذه الشخصية من الناس.

٢ – ويقول: أما وقد كثر الحديث عن قضية الخطأ والصواب على نحو مبتسـر وبعيد عـن الواقـع الذى يتوخّى المصلحة العامة وأهداف التيسـير بدلا مـن التعقيد فإنى ألتمس لنفسى عذرا لخوض هذا الموضوع.

وأقول: إننى لا أبتسـر ما أعرض له من اللّغة، لأنى فى كل مقالة آخذ لفظة واحدة أو عبارة واضحة، وأدير الحديث حولها على صورة أرجو أن تكون واضحة.

وإنـى لا أقصـد فيما أكتب فى اللّغة إلا تحليل الواقع اللغوى اليومى والمسـتعمل. فمن

(١)– كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

التجنّى القول بأن ما أكتبه بعيد عن الواقع. ثم.. إنى لا أقصد إلا المصلحة، وإلا التيسير. وقد وردت كلمة التيسير مرارا فى مقالاتى فى الجريدة. ولا ينكر معالجة الواقع اللغوية والتيسير فى مقالاتى هذه إلا من يصّده الهوى عن قول كلمة الحق المبين. أنا أكتب – أصلا – لمعالجة الواقع اللغويّ لا– لاستلال كلمات من المعجم، طواها النسيان خلافا لما يفعلُه كثيرون.

٣ – ويقول: ومن عجب أن بعض من يخطئون غيرهم لا يعتمدون فى تخطئتهم إلا على ما يتذوّقونه هم من القياس أو السماع. كأن يستشهدوا بآراء الكوفيين دون البصريين باعتبار الكوفيين فى رأيهم أقرب إلى طبيعة اللّغة من رأى البصريين. أو أنهم أقرب إلى بُعد النظر بسبب [تجاوب آرائهم] مع ما يحدث من تطور.

وأقول: أما القياس.. فليس لأحد أن ينكره، وإلا.. فماذا يكون مصير اللّغة؟ أما السماع.. فأنا أرى أن يقاس عليه – فيما ليس له قاعدة مناقضة – لأن مجاراة اللّغة للواقع والمستقبل لا يكون–على وجهٍ سليم – إلا إذا فعّلنا كل إمكانيّات اللّغة، ومنها تحويل السّماع إلى قياس، ولا سيما أن بعض ما اعتبره الأقدمون سماعا لقلته قد جَدَّ للمتأخرين منه ألفاظ كثيرة. ومثال ذلك أن النُّحاة القُدامى قالوا: ما كان من الصفات على وزن «فَعْلان» فمؤنثه على وزن «فَعْلى». بَيْدَ أنى وجدت فى (جامع الدروس العربيّة – للغلاييني) أربعَ عشرةَ كلمة، مذكرها (فعلان) ومؤنّثها (فعلانة) مثل: أسْيَان أسيانة، ونَدْمان ندمانة، وسَيْفان سيفانة.. ووجدت بضع صفات أخرى فى لسان العرب والقاموس المحيط.

ألا يحق لنا أمام هذا أن نصوغ قاعدة جديدة فنقول: الصفة التى على وزن (فعلان) يأتى مؤنثها أحيانا على وزن (فَعْلى) وأحيانا على وزن (فَعْلانةَ)؟ بل أما يجوز لنا – من أجل التيسير – أن نُضيف: وأنت مطلق اللسان فى أن تجعل أيّ صفة لـ(فعلان) على وزن (فعلى) أو (فعلانةَ)؟ أقول: خاصةً أن الذوق الحديث حتى عند الكتاب والشعراء أضحى يستسيغ (فعلانةَ) ولا يستسيغ (فعلى) . وذوق الأدباء معتبر فى استعمال ما يستعمل واطّراح ما يطرح، عندما يكون المستعمل له أصل فى الفصيح. فذوق الأدباء هو مِصفاة اللغة.

وأقول أيضا: عجيب أن يأخذ عليك شخص، إذا كنت ترى رأى الكوفيين فى كثير من المسائل وتأخذ به – ألاّ تأتىَ برأى البصريين أما سمعت بمثل هذا فى مناهج البحث. إذ لا يجوز لأحد أن يُلزم الباحث بأحد الرأيين. وإنما الباحث يختار. وليس لك أن تُحاسبه إلا على ما فى اختياره من قوة حُجة أو ضعف حجة .

هَبْ أحدا أخذ برأى البصريين.. أيجوز لى أن أقول: ولماذا لم تأخذ برأى الكوفيين؟ كل ما يجوز لى أن أقول: أخذت بالمنهج المرجوح، فمنهج البصريين يتهافت فى كذا، وكذا، وكذا..الخ وأدلّل على رأيى.

٤ – ويقول: هذا، ويُصرّ هذا النفر من المخطّئين إصرارا غريبا على هدم القاعدة الإملائية التى تعلمها طلابنا فى المراحل الابتدائية والثانوية والجامعية بوجوب حذف الألف من كلمة (ابن) و(ابنة) إذا وقعتا بين علمين بشروط هي[1]:

(أ) أن تكونا مفردتين مثل عمرو بن العاص، عمرو بن كلثوم، آمنة بنة وهب.

(ب) أن تكونا نعتين للعلم الأول، كما فى الأمثلة السابقة. أما إذا كانتا خبرا فلا تُحذف ألفهما، كقولنا: خالد ابن الوليد. جوابا لمن يسأل: خالد ابن من؟ وكقولنا: عائشة ابنة طلحة. جوابا لمن يسأل: ابنة من عائشة؟

(ت) ألا تقعا فى أول السطر. فإن وقعتا فى أول السطر ثبتت فيهما الألف.

(ث) ألا يفصل بينهما وبين العلم الأول فاصل. فإن فصل بينهما وبين العلم الأوّل فاصل ثبتت الهمزة. مثل: خالد هو ابن الوليد. ويلحق بالعلم ما يلي= الكتابة عن شخص لا يعرف اسمه، مثل: أكرمنى فلان ابن فلان.= الكنية: وهى ما صُدِّرَ بكلمة أبٍ أو كلمة أُمٍّ مثل: الخليفة الأول هو أبو بكر ابن أبى قحافة، جاءت أم على ابنة أبى محمود.= اللقب. مثل: قرأت عن الهادى ابن زين العابدين.

فلماذا نُلغى حصيلة قواعد إملائية تعلمها طلابنا منذ عقود طويلة، وما زالوا يتعلمونها، وأقرها باحثون محدثون...؟

وأقول: قصدت أن أنقل النص كاملا عن إملاء (ابن)، لأسأل الإنسان المثقّف: أيُّهما الميسر وأيهما المعقد: أن تقول: (ابن) و(ابنة) تكتبان دائما بألف، من باب الرأى والاقتراح، أم أن تذكر كلّ ما ذكره كاتب المقالة من شروط رئيسية وشروط فرعيّة، ينسى بعضها المتخصصون. أنا صاحب الرأى الأول. وقد أوردته فى جريدة الدستور، وكاتب المقالة الدكتور مصطفى الفار، صاحب الرأى الثانى. فإذا تذكّرت أن هذا الكاتب يتهمنى بالتعقيد فى الرقم الثانى

(١) كلام الكاتب غير واضح، فأنا أرى إثبات الألف مع (ابن) و(ابنة) دائما. أما ما جاء به من الشروط بعد قوله« (إذا وَقَعتَا بين علمين بشروط هى:) فهذه الشروط هو الذى يراها. أما أنا فأرى أن نحذف كل الشروط التى يحفظها طالب العلم ثم ينساها– إذا لم تراجع بين آن وآخر – حتى المتخصصون، ينسون بعضها، فما بالك بطالب المدرسة وبغير المتخصص؟

الـذى أوردته مـن مقالته أدركت إلى أيّ حَدٍّ يخرج هذا الكاتـب عن الموضوعية، ويناقض بعضُ أقواله بعضا. بل – إن فاقد الشـيء.. لا يعطيه. وهذا الكاتب ما عُرف له «تجديد» ولا فى باب من أبواب العربيّة. وإذا كان لديه شـيء جديد.. فليذكره على الملأ – شـأنُهُ انعدام التجديد شَأنُ –٩٠٪ – من المُتخصِّصين بالعربيّة.

كان الله فى عون طلابنا، ماذا يدريهم عن بعض هذه المصطلحات التى وضعها الكبار، من مثل – أن تكونا نعتين – أما إذا كانتا خبرا – ويلحق بالعلم ما يلى..؟

ثـم .. إن التيسـير فـى حدود الصـواب مطلوب. أما تـرى أن عائشـة – رضى الله عنها– قالت عن رسولنا – صلى الله عليه وسلم–: «ما خُيّر رسول الله – صلى الله عليه وسـلم– بين أمرين إلا اختار أيسـرهما ما لم يكن حراما»؟ وما طلبْتُهُ أنا من التيسـير هو فـى رأيى هو الصواب، لأنّنا إذْ نضع الألـف دائما فى أول (ابن) و (ابنة) لا نُضيّع معنى أبـدا، وهـى – بعدُ – مثل ألف (القمر) تُكتب ولا تُلفـظ فى دَرْج الكلام. وإنّ الذى جنى علـى المغاربـة أن يقولوا: (بِنْ بركة – بِنْ جديد..)[1] إنما هو حذَف الأف من (ابن)، لأن المرء – بشكل عامّ – يقرأ ما يرى، وهو يرى (بِن) وليس (ابن) فيقرأ كما يرى. لأن الحرف ..أصلُهُ «رمز» لصوت، والألف فى حالة البدء بها صوت مسـموع. وغير مسـموع فى درج الكلام كألف (القمر) فلماذا على رأى المقلِّدين للقدامى– لا نحذف (ألف) القمر؟.

أمـا الذيـن يضعون لابن وابنـة قواعد عدّة فهم لم يأتوا بمعنـىً ذى بالٍ لكل حالة من الحالات، وكأن الإملاء يَضِيع إذا لم تأتيا على وَفْقِ هذه القواعد المعقدة.

أما التساؤل: لماذا نلغى حصيلة قواعد إملائية..

فالجواب أن الإنسان يسعى دائما إلى الأيسر الذى لا يخرج على الصواب. وما اقترحته أيسـر بكثير مما هو مألوف ويتعلمه بصعوبة طلابنا، دون أن نخسر فى هذا التيسير شيئا. أمـا تـرى أن التعليم كان تلقينيا علـى مدى قرون. والآن أصبح الـرّأى الرّاجح أن التعليم الناجـح هو التعليم عن طريق المشـاركة والمحاورة. بل إن الناس، لقـرون كانوا يَرَوْنَ أن الأرض مركـز الكـون وأنها ثابتة. ثم.. اكتشـف العلم حديثا أنها كوكب صغير وليسـت مركز الكون، وأنها تدور حول الشـمس وتدور حول نفسها. فترك التعليمُ ذاك القديمَ وأخذ بهذا الحديث الذى اكتشفه العلم.

---

(١) بن بركة– بن جديد: تكتب بدون ألف، وبكسر الباء وتسكين النون على ما هو متعارف عند المغاربة. وهذه جناية الخلل الإملائى المتوارث.

أما أن هذه القواعد المعقدة – أنا أقول– قد أقرّها تربويون مُحْدَثون فليس بحجة علينا، لأنهم أعملوا عقولهم التى لا تحتوى طبقة «التجديد» فارتَضَوْا ما ورثوه عن الأجداد، فى هذه النقطة، ونحن أعملنا عقولنا فخالفناهم. وهم رجالٌ ونحن رجال. ونحن نعرض رأيًا نُؤمن به ليس أكثر. فمن اقتنع به أخذ به. ومن لم يقتنع احترمنا اختياره. إن المقلّدين البائسين هم الذى يعتقدون – واهمين– أن كُلّ ما تركه القدامى هو حقّ وصدق وصواب، فليس علينا إلا أن نحفظه لنقلدهم فيه، إن الكاتب الذى – يُحدِّق –فى الحاضر، وينسى المستقبل إنما هو رجل تقليدى من زوامل المعلومات، وليس له نصيب فى حركة العلم وتطوره.

والإملاء – بَعْدُ – ليس مقدسا، وإنما أفْضلُهُ ما طابق فيه الحرفُ الصوتَ، مع استثناءات قليلة. والدّليل على ذلك أنه تطوّر مِرارا خلال العصور. الثّابت فى أصوله ومقاييسه العامة فهو اللّغة، نحوا وصرفا وتركيبا وليس الإملاء الذى هو رموز لأصواتِ اللغةِ ليس أكثر.

٥ – ويقول: مما تقدم بيانه يتضح عدم جواز إطلاق الأحكام العامة بالخطأ والصّواب على نحو تعسُّفى فردى دون مسوّغ إلا مُخالفة الواقع المعيش، والمعمول به حتى اليوم.

وأقول: أنا حريص حرصا علميا وأخلاقيا على أن لا أصوّب أو أخطئ بناءا[1] على دليل أو تعليل. وإذا وَجَدَ الكاتب رأيا تعسُّفيا فليبرزه. وحَسْبُكَ من احترام للعلم والأخلاق أن يورد المرء رأيه مع دليله أو تعليله ومن ينهجْ هذا المنهج فلا يُخالف الواقع المعيش من أجل المُخالفة وإنما لأن له وِجهة نظر «مُعللة» يريد أن يوصلها للناس، يريد بها رضا الله ومصلحة الناس.

أما أنّه رأى فردى.. فملايين الكتب كَتَبَ كلًّا منها فردٌ. وهذا، لا يحول بين جهود المجامع واللّجان التى لم تُعَرفْ إلا فى العصر الحاضر وبين ما تتخذه من قرارات، وهذه

---

(١) بناءا: أكتبها وفى آخرها ألف بعد الهمزة. لأن حذف الألف المنونة بعد الهمزة، فيما ورثناه فى هذا الشأن، ليس له مُبرر معقول. يقولون فى التعليل: تحذف الألف من الآخر، فرارا من توالى الأمثال. أقول: هم يعتبرون الهمزة من جنس الألف. وهذا.. غير صحيح، فالهمزة مثل (العين)، وليست من جنس الألف، وإن كتبت أحيانا على ألف. فالألف مجرد قاعدة، وإنما الصوت للهمزة. وكما تكتب على ألف تكتب على ياء وعلى واو. ومع ذلك.. فليس من أحد يعتبر الهمزة من جنس الياء أو من جنس الواو. فكما نقول: (جِياعا) يجب أن نقول: (بناءا) – فالهمزة صوت حلقى كالعين، فكما نضع بعد العين ألفا منونة بالفتح– يجب أن نضع ألفا منونة بالفتح، بعد الهمزة.

فكما نقول: صراعا.. فلا نحذف الألف المنونة يجب أن نقول بناءا.. بإثبات الألف المنونة. ومثلها كل الهمزات التى يأتى قبلها ألف ويأتى بعدها ألف منونة، مثل: ابتداءا – استثناءا – لأواءا.

اللّجـان والمجامع تأخذ ما تراه من رأى الأفراد، وتُهمل ما لا تراه، أو تَرُدّ عليه، والحكَمُ الـذى هـو أعلى من المجامع واللجان إنما هم الأدباء المبدعون، فإذا هم استـاغوا شـيئا واستعملوه سارَ، وإذا هم لم يتذوّقوه أهملوه فبار.

ثـم.. إنَّ الدعـوة إلى صمت الأفراد حتـى تنطق المجامع إنما هى دعـوة تنتصب ضِدَّ الحريـةِ، وَتَعَـدُّدِ الآراء، وإطلاقِ ملايين الطّاقات التى لا تضمُّها المجامع، بل لا تتسـع لهـا. بل إن بعض أعضـاء أيّ مجمع لا يقتنِعون بالرأى الذى يفوز، من خلال التصويت، فيكتبون مقالات وكتبا يُوضحون فيها آراءهم، خدمةً للعلم، وإبراءا للذِّمة. يا دكتور – ليتك ذكرت– مثلا واحدا– بَسَّ، تدلل به على الأحكام التعسفية التى أتيت– أنا– بها.

وإلاّ.. فهل ترى أن المجامع (مع جهدها الكبير) قد نجحت عندما أطلقت على التلفاز مُصطلـح «مِرْنـاة» فأصبح نادرة يتندّر بها الناس، ثم.. جاء رجل واحد هو المرحوم الدكتور أحمد زكى رئيس تحرير مجلة (العربى) سابقا، فقال: أرى أن نُطلق على التلفزيون تلفازا. فسارت بين الناس.

وهـل تُعْـدِمُ كتب الأخطاء اللغويـة.. القديمة والمعاصرة التى ألّـف كلاً منها فرد؟ من القديـم: الفصيـح لثعلب، ودرّة الغواص للحريرى، ومن الحديـث: لغة الجرائد لإبراهيم اليازجـى، وقل ولا تقل لمصطفى جواد، ومعاجم للأغلاط اللغوية لمحمد العدنانى؟ وغيرها كثير وهذه المعاجم... فيها الصواب، وفيها الخطأ.

إنّ الجهـود تتكامل ما بين المجامع والافـراد، فلا يحق لنا أن نقف حجر عثرة فى طريق التأليف: فرديا أو جماعيا، إبداعيا أو علميا، الشرط العلمى والأخلاقى هو أن يكون الرّأى مُقيّدا بدليله أو تعليله، وليس سـابحا فى الفراغ، وفى متاهات الوهم– أو ضلالات الأحـكام العامّة التـى ليس عليها أىُّ دليـل، وإلاّ .. فَتَهبْ العلماء فـى مجالات العلوم والمعارف كافّةً – توقفوا عن التأليف إنتظارا لما تجود المجامع – أما تنتهى إلى حياة علمية يائسة كبؤس المقلّدين؟

٦ – ويقـول: أمّـا الترخص فى تصحيح بعض الأسـاليب والتعبيرات الشّـائعة التى أنكرها الأقدمون أو التى لم تسـجّلها المعاجم اللّغوية فينبغى أن تقرّر تخريجها لجان وأن تعتمدها المجامع. ولا يكفى أن يُطلقها شـخص واحد جُزافا، ودون دليل كافٍ. ففى ذلك إنـكار لدور اللّغويـين، وخروج عن جادة الصّواب، ومُخالف للإجماع الذى يتطلّبه الحفاظ على لُغتنا العربيّة، لغة القرآن.

وأقول: لم يأتِ الكاتب بجديد، وإنما عاد عودة إلى بعض ما ذكره سابقا فهو كالعائد فى الذى أفضاهُ. ثم.. أنا لا أطلق ما أُصحّحه أو أخطّئه، دون أن يكون قائما على دليلٍ كافٍ، ولا أُطلقه جُزافا. فالجُزاف والتَّجنى والحَسَد الذى يأكل القلبَ الحسودَ عند الذى يُطلق أحكاما كثيرة دون أن يدلِّل على صحة واحد منها بمثال.

أما سألت نفسك، لو كنت ذا عقل يتّصف بـ«العِلْمَوِيَّة» – كيف أُطلقُ أحكاما (على حَلِّ شعرها) كما يقول المثل المصرى، من دون أن تُدلّل على ذلك، ولو بدليل واحد؟.

ثم.. من قال لك: إن هناك إجماعا فى اللّغة أو فى الفقه؟ إنَّ لِسان العرب مملوء بمُخالفات بعض اللّغويين بعضا فى ألفاظ كثيرة. بل إنه كان من أهداف مؤلف (القاموس المحيط) أن يُخَطّئ الجوهرى فيقول: وَوَهِمَ الجوهرىُّ – الجوهرى صاحب مُعجم الصِّحاح.

ومثل ذلك فى الفقه. فلم تكن فى الإسلام قُرابةَ سبعة مذاهب فقهيّة إلاّ لأن الفُقهاء اختلفوا فى كثير من الفروع وكلٌّ رأى يحترم، سواءٌ أَأَخَذ به جمهور كبير أم جمهور صغير، إذا كان قائما على دليل وتعليل.

أمّا الخروج عن جادة الصواب فلم يمارسهُ إلا الذى لم يأتِ بمثل واحد يدعم به حُكما من أحكامه الجُزافيّة. وعادةً ليس الهروب من التخصيص إلى التعميم يكون إلاّ لأن هذا الهُروبى لا يجد مادة خاصة فيما ينقدُهُ، تدعم أحكامه العامة. وعادةً الأحكام العامّة، دون دليل هى طابع العامّة، وليس طابع الخاصّة.

أمّا الدعوة إلى الحفاظ على لُغتنا العربيّة.. لغة فهم القرآن – فهذا ما أسعى أنا إليه من خلال مقالاتى اللّغوية التى أكتبها فى جريدة الدستور. وليس من أحد يستطيع أن يُزايد عليّ فى هذا الشأن. فأنا أهتم بالفصحى، لأنها لغة القرآن الكريم، إذا كان كثيرون يتعصبون إلى اللغة، بلا هدف نبيل.

وبعدُ: فلعلّك رأيت أخى القارئ أنّ هذا الكاتب تناقض فى بعض أحكامه، وأرسلها جميعا مُطلقةً، دون أن يلتمس ولو مثلا واحدا على ما كان يَدَّعى. وهذه أسباب كافية لاعتبار ما كتبه دون مُستوى البحث العلمى الذى يَلْتمس الحق والعدل، والإنصاف. وإنما وراء ما كتب هوىً وحسدٌ. وكما قيل: (كل ذى نعمة محسود).

وبعد أيضا: فقد أطرى مقالاتى اللّغوية التى أكتبها فى الدستور عالم لغوى جليل

هو أستاذنا الدكتور ناصر الدين الأسد، فى أكثرَ من مُناسبة ٱلتقينا فيها. وعالم جليل مثلُهُ لا يجامل فى الحقّ، لأنه يعلم أن كلامه وثائق. وأن الناس سيستشهدُون به، فيذيعونه، وفى آخر لقاء قال لى: أهلا باللّغوى الكبير.. وهذا رضىً عن المنهج على الأقل، وعلى كثير من التفصيلات. أعاذنا الله تعالى من (عين) الحسود – الذى يرسل كلماته صَمّاءَ كالجُلمود.

والله تعالى المُستعان، وعليه التكلان.

obeikandl.com

الموضوعُ السادسُ

اللّغةُ العربيّةُ والمُعاصَرَةُ (العربيّةُ أدقُّ اللُّغات بيانا)[1]

فى برنامج (الديوان) الذى يُشــرف عليه الأستاذ الشاعر حيدر محمود ويُبَثُّ من التلفاز الأردنــى – كانت حلْقة مســاء الإثنــين ١٨ – ٤ – ٢٠٠٥م، عن اللّغــة العربيّة الفَصيحة ومستقبلها، وبُثّت من بيروت – عاصمة الثقافة.

وإنى أريد أن أسجّل الملاحظات الأربع التالية حول هذه الحلقة:–

١ – قال أحد المشتركين، مُقارنا بين اللّغة العربيّة واللُّغات الأجنبية:

إن اللّغة العربيّة لُغة فيها القدرة على التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه، أى: فيها القُدرة على التّعبير عن الجانب الإنسانى فى الإنسان. وليس كذلك اللُّغات الأجنبية؛ فهى لغات تعبر عن الجانب المادى فى الحياة، وحده.

أقول: إن كلّ اللُّغات الغنيّة المتحضِّرة.. تُعبّر عن الجانب المادى فى الحياة، وعن الجانب الإنســانى فى الإنسان على «تفاوت». لأن اللّغة هى تَرجُمان واقع الحياة، بجانبيها الماديّ والإنسانى. وليس من لغة لا تكون كذلك. وهذا.. ينطبق حتى على اللُّغات غير الحضارية، وليــس على اللُّغات الحضاريــة، وحْدَها . لأن اللغة، وإن كانت ألــف لفظة، ليس أكثر، تعبّر، ولو بدرجة ضئيلة عن فكر الإنسان، ومشاعره. بل اللغة تبدأ– إنسانية– لأن الإنسان يبدأ يعبر عن اندهاشــه بموجودات الحياة،فكلّ شــيء يراهُ يستثير اســتغرابه واندهاشه، فيبدأ يعبر عن (مشــاعره) بالحركة والصوت (كالصرخة، والآهِ، وما شــابَهَ ذلك، ثم ينتقل إلى التعبــير بالصــوت المرك (أى – بالكلمة القصيرة ذات الدلالة)– ومع التطور تتكوّن لديه كلمات تعبر عن مشــاعره، ثم يترقى، فتزداد الكلمات،بحيث تعبر عن مشاعره، وتعبر عن فكره– تعبيرا– ما . وهكذا .. فكل لغة تبدأ إنسانية (بمعنى أنها تعبر عن طبيعة الإنسان) أى – كل لغة تبدأ لغة (شــعورية) أو شــاعرية. فأين التدبّر لتطور الإنســان ولغته عند هذا الأســتاذ المحاور؟ إن التعصب الذى لا دليل عليــه.. قادَهُ إلى هذا). والعربية الفصحى إلْهامية، غير أن الله منزّلها – جعلها جارية على الطبيعة البشرية، وليست مدابرة لها.

---

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

بَيْدَ أن اللّغة العربيّة.. لها فَضْلُ بيان على اللُّغات الأخرى. أما قال تعالى:
﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣]. (الآية جاءت ردّا على الذين يتّهمون الرّسول الأعظم بأن ما يأتى به من قرآن إنما يعلمه إيّاه بشر، (وهو غلام أعجميّ كان قينا!). لاحظ أن الله تعالى لم يصف اللّسان الأعجميّ بالإبانة، وإنما قصر الوصف بالإبانة على اللسان العربى. ولو كان اللّسانان مُتساويين لجاء الكلام: (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى، وهذا لسان عربى)» ليس أكثر.

والتدليل على أن اللّسان العربى فيه فضل بيان على أيّ لسانٍ أعجميّ يطول، ويكتب فيه مُجلّد. ولكننى أكتفى بأن أذكر ناحيتين، وأن أمثّل على كلٍّ منهما:

(أ) اللّغة العربيّة لغة «الاشتقاق» ولا تُزاحمها فى هذا لغة أخرى. فأنت يمكن أن تشتقّ عِشرين كلمة من مادة «كَتَبَ» مثلا، ولكنك لا تستطيع أن تشتقّ من مادة (write) الإنجليزيّة إلا كلمات قليلة. لاحظ أنك تشتق من «كَتَبَ» مكتبا. ولكن مقابلها فى الإنجليزيّة لا يأتى من مادة (write)، وإنما هى (office). وتشتق من «كَتَبَ» .. مكتبة، ومن الإنجليزيّة شيء آخر فهى (library)، ثم (كِتاب)، وهى فى الإنجليزية من مادة أخرى (book). وهكذا.. عشرات الكلمات وقد ورد مثلُ هذا القول – سابقا[1].

وقيمة الاشتقاق أنه يمكنك من أن تعبّر عن أدقّ الخلجات الوجدانيّة، مما لا يكون فى اللُّغات غير الاشتقاقية، أو التى يقلّ فيها الاشتقاق كالإنجليزيّة، مثلا.. قال الإمام على ابن أبى طالب: (حتى قالت قريش: إنّ ابن أبى طالب شُجاع، ولكن لا عِلمَ له بالحرب. لله أبوهم. وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراسا منّى؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد «ذَرّفت» على الستين. ولكن، لا رأْيَ لمن لا يُطاع!). فالفعل «ذَرَّفَ» المشدد الرّاء لا نجد نظيرا له يؤدى معناه بالتّمام بالإنجليزيّة. وما ذاك إلا بسبب الاشتقاق، أى: بسبب الاشتقاق بالحركة، عن طريق نقل حركة الراء من الفتحة إلى الشدّة المفتوحة. فلو قال: بلغتُ الستين، أو كدت أُنهى الستين.. الخ لما كان لذلك من الإشعار بما يحُسّه المرء الذى يكاد ينهى العام الستين من عمره بأنه حنكته التجارب التى تمخّضت عنها هذه السُّنون الستون.

(١) يراجع ما بَيّنّا به تفوق العربية على الإنجليزية (وغيرها من اللغات) – فى القسم الثالث.

وجمال هذا الاشتقاق – بتشديد الحركة فى هذه الكلمة – إنما يأتى من وجهين: الأول – أن الإمـام نقل المعنـى نقلا مجازيا من (ذَرَّفَ الدمع) إلى مجال سـنوات العمر. فكما أن العين تُرسـل الدمع قطرة قطرة، فسـنوات العمر تمرّ (أو تقطر كالدّمع) واحدة بعد أخرى. والثانى – أن (ذَرَفَت العين الدمع) بلا تشديد الرّاء، لا يماثل (ذَرَّفَت العين الدمع) بتشديد الرّاء. لأن الأول (فعل) عادىّ، أمّا الثانى ففعل يدلّ على (المُبالغة) أى: على شـدّة التألّم والحُزن، بحيث يكاد الدمع ينصَبّ انصبابا.

والإمام إذ اسـتعمل الفعل المُشـدّد (ذَرَّفَت) إنما كان يحسّ أن الموقف يستدعى التأكيد بأنه ذو تجربة طويلة فى الحرب يجب ألاّ يغمطه حقه فيها أحد.

٢ – مرونة العربيّة فى التقديم والتأخير – وجُمود التركيب فى الإنجليزيّة.

إن الإعراب، فى العربيّة، يسـاعد على المرونة فى التعبير، بحيث يقدّم المتكلّم ويؤخّر تبعـا لجزئيات المعنى، أعنى أن المتكلم يرتّب الكلمات فى التعبير، تبعا لترتيب جُزئيات المعنـى فى النّفس، فالألفـاظ.. خدمُ المعانى، كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجانيّ. وهذه المرونـة فى ترتيب الكلمات أمثل صورة تعبيرية عن المعنى. أمّا الإنجليزيّة.. فالتعبير فيها – كقاعدة عامة – جامد وقد ورد مثل هذا الطرح، فى مواطن متفرقة من هذا الكتاب.

مثلا.. المتنبى – الشاعر العظيم قال، عندما فارق سيف الدولة، بعد غضب سيف الدولة عليه، من قصيدة رائعة، يشكو فيها، ويمدح كافورا الإخشيدى – حاكم مصر – قال:

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطّوى ولا تُتّقـى حتـى تـكون ضواريا

ونحـن – للاختصـار – نتناول الشـطرة الأولى وحدها؛ لاحـظ أنّ المتنبى قدّم المفعول (الأُسْـدَ) على الفاعل (الحياءُ). لماذا؟ لأن الذى كان يُحزن المتنبى ويملأ نفسـه شجنا فى ذلك الحال.. افتقاره «للقوّة»، إذ لو كان قويا لما تسـلّل هاربا من حِمى سـيف الدولة؛ بل لناجزه.. ولا ريب أن الأُسْـد رمز للقوة، ولهذا.. عندما بدأ بنظم هذا البيت قفز إلى شُعوره رمـزُ القوة – القوة التى يفتقدها – فجاء ترتيبه النفسـى (ترتيب هـذا الرمز) قبل الفاعل (الحيـاء). ولهذا.. جاء نظم الشـطرة على تقديم المفعول قبل الفاعـل. وأدقّ الكلام تعبيرا ما كان ترتيبه فى الاستعمال كترتيبه فى النفس، أيْ– كترتيبه فى الوجدان.

بيدَ أنّ الشـاعر الإنجليزى، لو كان فى مثل حالة المتنبّى لا يسـتطيع أن يَفْرَى فَرْيَهُ، بسبب جُمود قوالب الإنجليزيّة. الشاعر الإنجليزى لا يملك إلا أن يقول فى هذا المعنى:

(The Shamefulness does not benefit the lion from hungry).

لأن الفاعـل (الـذى يأتى مُبتدءا فى الإنجليزيّة) لا يمكن تأخيره بعد المفعول. ولا ريب أن هذا الوضع الجامد لا يُساعد الشاعر (أو المتكلّم بشكل عام) أن يُفضى بكل ما فى نفسه، حَسَبَ ترتيب جُزْئيَّاته فيها. وهذا.. قُصور فى الإنجليزيّة لا تُعانى منه العربيّة. وهذا.. من الأسباب التى تجعل العربيّة أدق بيانا من الإنجليزيّة، وسوى الإنجليزيّة من اللُّغات.

٣ – وقـال مُشـترك آخر فى النّـدوة: اللُّغات الأخرى لا تجد كلمـات دقيقة لترجمة القرآن الكريم.

وأقـول: بديهيّ أن القرآن لا يمكن ترجمتُه، لأنه مُعجز فى بيانه (وفى جوانب أخرى كثيرة)، وإنما تترجم مَعانيه، كما يفهمها البشر.

ولكن حتى ما هو دون القرآن – وهو الأدب، والأدب فى أعلاه – (كثافةً فنيةً) الشعرُ– لا يمكن ترجمته على نفس مسـتواه البلاغى، سـواءٌ من العربيّة إلى غيرها من اللُّغات، أم من اللُّغات الأخرى إلى العربيّة. وقديما قال الجاحظ العظيم: الشعر.. لا يمكن ترجمته (من العربيّة إلى غيرها، ومن غيرها إليها). لأن الشعر بالدّرجة الأولى، والأدب الرَّفيع بالدرجة الثانية.. هو تعبير عن حالة وجدانية خاصّة، ويسـتحيل أن يجد المُترجم نفسـه فى مثل تلك الحالة الخاصّة، لكى يأتيَ تعبيره الفنىّ على مسـتوى التعبير الفنى الذى «فاض» به وِجدان المُبْدِع الأوّلِ. إذن.. السبب الأول ليس عدم وجود كلمات دقيقة (مع أن ذلك يكون أحيانا)، وإنما هو عدم تطابق حالة المترجم الوجدانية مع حالة المبدع الوجدانية.

ولهـذا.. فأنت ترى أن الموادّ «العلمية» و«الفكريـة» يمكن ترجمتها، لأن العلم واضح، ولا علاقة له قويّة بالوجدان (بالعواطف والمشاعر والأحاسيس)، وكذلك الفكر. وحتى عندما تأتى بعضُ الألفاظ المعبِّر عنها فى لغة، وليس لها مقابل فى اللّغة المترجَم لها.. فإن الإتيان بألفاظ مقاربة أو بكلمتين بَدَلَ كلمةٍ حتى يُسـتوفى المعنى ... أمر ممكن. ولأن العلم والعقل لا علاقـة لهما بتعرّجات الوجدان فإنه من المعلوم أن بَسْـط قضايا العلم لا يحتاج إلى أكثر من عشـرين ألفَ كلمة، أما الأدب (والشـعر الخاصة) فلكى يتمكن الأديب من التعبير عن خلجات النفس وتعرّجات الوجدان.. فإنه يحتاج إلى أن يكون رصيده من الكلمات لا يقلّ عـن ثلاثين ألف كلمة. أمّا القرآنُ .. فما أبعـدَ أىَّ لغة عظيمة من الاقتراب، من بلاغته!

فكيف يترجم القرآن، وقد نزل على طريقة ضَمٍّ خاصة معجزة؟ وكيف يترجم جلاله، وبهاؤه، وإشعاعات معانيه، والدقة الكاملة فى تلاحم اللفظ والمعنى، وتعدد طبقات المعانى والإشعاعات فيه ... إلخ..؟

٤ – أمّا قول أحدهم بأن الإنسان، فى كل العصور يعيش حضارة واحدة متعددة الحلقات. ولكن الثقافات متعددة.. فأقول: ذلك غير دقيق.

بل الإنسان عاش حضارات متعدِّدة، وثقافات مُتعددة، عَبْرَ التاريخ؛ لأن الحضارة لا تقوم بدون «فكر». والفكر مختلف من أمة إلى أمة، ومن حِقبة تاريخية إلى حِقبة أخرى. وإلاّ.. فهل الفكر اليونانى القائم على الإلحاد وتعدد الآلهة (الذين هم فى وَعْي اليونان ذوو صفات بشرية وأخرى فوق الصفات البشرية).. مثيل للفكر المسيحى القائم على عقيدة دينية، أو مثيل للفكر الإسلامى القائم على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الصفات البشرية؟ طبعا.. لا.

وكل فِكر.. تتولد عنه حضارته، وتتولد عنه ثقافته، كما يتولد الشُّعاع عن الشَّمس، والنبات عن المطر، وحتى «العلُم» فله ارتباط بالحضارة، وإن كان العلم يمكن أن ينتقل من حضارة لأخرى، دون عقبات كبيرة. ولا يمكن أن تخالف الثقافةُ.. الفِكرَ، لان الثقافة هى تَحَوُّرٌ وجدانّى للفكر، من خلال الأدب، ومن خلال القيم، وأنواع السلوك الخاصّ.

أما الملامح المشتركة بين حضارة وحضارة.. فهى لا تعدو كونَها تعبيرا عن القاسم المُشترك فى جُزْئيّات الفِكر وتلَوُّنات الوجدان بين الإنسان وأخيه الإنسان. أما ترى أن الشيوعية التى هى نقيض الإسلام.. تدعو، فى الجانب الاقتصادى، إلى أن يُوزّع المال على الجميع بحيث لا يبقى جائع – كما يدعو لذلك الإسلام؟ وهذا.. ما «تَلبّس» على عالم إسلامى مُعاصر بحيث كتب كِتابا فى الاقتصاد سمّاهُ (اشتراكية الإسلام)، ذلك.. للتشَابُهِ الشكلى بين الدعوتين فى الجانب الاقتصادى. أو – لتشابُهِ جزئيّات الفكر. مع أن الفرق، فى جوهره، بعيد جدًا بينهما؛ فالإسلام يعتبر هذا التوزيع «العادل» للثَّروة عِبادة يُثاب عليها المسؤولون الذين يُقيمونها بين الناس – ثوابا من الله تعالى قد يُرجِّح كفّة حسناتهم يوم القيامة، فيدخلون الجنة، ومثل المسؤولين الأفراد الذين يُنفقون من أموالهم فى وجوه الخير.

أما الشيوعية.. فلا عَلاقة لنظرتها للاقتصاد بثواب أو عِقاب، لأن الشيوعية من حيث المبدأ ليست عقيدة دينية تؤمن بالآخرة، وبالحساب والعقاب.

ولديّ مُلاحظات أخرى. ولكنني أكتفي بهذه المُلاحظات الأربع السّابقة، حتى لا تكون الإطالة.. مانعةً من النشر، ومملةً للقارئ الكريم. والله تعالى يهدى إلى الحق والرفق.

obeikandl.com

الموضوعُ السابعُ

اللغةُ العربيةُ - والعشوائياتُ العربيةُ[1]

تمهيدٌ:

– قـرأت فـي مجلة (العربـي) التى تصدر فـي – الكويت – فى العـدد– (٦٤٥)– ٢٠١٢م – مقالة للدكتور إبراهيم مهدى الشـبلى– من العراق– وعنوان المقالة: (أدركوا اللغة العربية)– إذْ يرى أن العربية الفصحى فى خطر» ويذكر (وأختصر) بعض مظاهر الاستهانة بالفصحـى– من مثل تداول كلمات أجنبية، داخل سـياق الجمل العربية، وكتابة لافتات بعض المحلات (والمحلات..صحيحة كالمحالّ) باللغة الإنجليزية، وارتداء ملابس مكتوبٍ عليها عبارات بالإنجليزية وغيرها.

– ثـم.. يورد اقتراحات لدعـم الفصحى– منها (وأختصر): قيام المنظمة العربية بجمع الدراسات السابقة، ثم إنشاء دراسات جديدة، حول سبل النهوض بالعربية،– الإكثار من الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية...

العشوائياتُ العربيةُ:

– لنفرضْ أن حاكما أراد أن ينشـىء لدولتـه عاصمة جديدة، فاختار مكانا، بَدَأَ البناء عليه. ولكن لم يضع – بواسطة الخبراء – مخططا عاما لعاصمته، تظهر فيه مواقع الدوائر الحكومية، متفرقةً، حَسَبَ وظيفة كل وزارة، والأماكن المخصصة لبناء– الدارات– وأخرى لبناء الشـقق، وهى أوسـع الأرض، وأماكن أخرى– للمصانع،وأخرى للمتاجر– حَسَـبَ المناطق، وأماكن للحدائق، وللملاعب...إلخ... أو – لم يختر أىَّ نوع من التنظيم.

– فبدأ البناء، ومضى– عشوائيا– كلٌ يبنى أينما شاء، سواءٌ – أكان البناء – لدارة، أم لعمارة ذات شقق، أم لمرآب للسيارات، أم لقصر للحاكم، أم بناءا لوزارة...إلخ...

– أما تكون هذه العاصمة تضمّ كل أنواع الأبنية والمرافق– التى تضمّها عاصمة أخرى، وُضـع لها مخطط كلّيّ، مُسـبقا، وَضَعَ كل شـيء في محله؟ – أجـل– تضمّ كل ذلك، ولكـن الفرق بين تلك العاصمة التى بُنيَت بلا مخطط كُليّ، وبين هذه العاصمة التى وُضع

(١) كتبت، سنة – ٢٠١٢م.

لها مخطط شـمولى أو كُلّىّ، مسـبقا- أن الأُولى قامت على- عشـوائيات - كعشوائيات الفقـراء المُعْدِمين، فى المدن الكبـرى، فى العالم العربى، والعالم بأسـره. أمّا الثانية.. فقامت - بفضل المخطط الكلىّ- على تنظيم وتصميم وترتيب، جعل كل شيء فى مكانه. ونتيجـةُ هذا .. أن العاصمة التـى قامت على مخطط كلى تحقق أهدافها بنجاح. أما تلك بُنيت عشـوائيا تتضـارب المصالح بينها، وتتقاطع.. فلا تحقق إلا ما يزيد عن خمسـين بالمئة (٥٠٪) من أهدافها ومقاصدها. هكذا.. الدول العربية؛ ليست أكثر من عشوائيات، لا تسـتطيع أن تحقـق من أهدافهـا الوطنية أكثر مـن (٥٠٪) خمسـين بالمئة، ولا من أهدافها - القومية، أكثر من (٢٥٪) خمس وعشـرين بالمئـة. ولهذا.. فالدول العربية.. فاشلة فى حفظ حدودها، وفى تنمية مواردها، وفى تحقيق احترام لها فى العالم، أو كلمة مسـموعة، بل أو المسـاهمة فى بناء الحضارة، بل نحن عشـوائيات مسـتهلكة لفتات ما يصدره العالم المتقدم المتحضر - لنا!!

شأن مقترحات الدكتور إبراهيم مهدى:

- هذا..شأن مقترحات الدكتور إبراهيم مهدى الشبلى (على أهميتها الجزئية) - لأنها لا تزيـد علـى أنها - عشـوائيات - كعشـوائيات العاصمة التى قامت بـلا مخطط كُلّىّ (وعشوائيات هذه المدينة .. مُهمّة، ولكنها قاصرة عن الغاية المرجوّة، من التخطيط والتنظيم وَوَضْع كل شـيء فى مكانه. فاللغة لا تحقق أهدافها بهذه الجزئيات، وإن كان لابأس من جهد المُقِل.

- وإذن.. لا بُـدّ لهذه المقترحات من أن تنضوى، ضمـن مخطط كُلّىّ، والمخطط الكلى لا يكون، ويستحيل أن يكون، ما دامت البلاد العربية تقوم على - عشوائيات- من الدول العربية، الدول العربية.. التى بُنيّت من دون مخطط كُلىّ. أو التى جزّأها الاستعمار وبقيت على تجزئتها، بل عمقها الحاكمون.

- ومخطط هذه الدول - الكُلّىّ- هو ألا تبقى عشوائيات، كل قبيلة دولة، وكل مساحة من الأرض لا تتسع لتكون أرضا لإقطاعى، حكوميةً - كما قال الشاعر - المتذمر من حالة التفرق والتشرذم:

(وتفرقوا، دُولا؛ فكلُّ قبيلةٍ فيها أَميرُ المؤمنينَ ومِنبرُ)!

- هو أن يصير بينها - جميعا - اتحادٌ ما (أما أفكار الوحدة فأفكار طوباوية لا تصلح للعيـش على الأرض) - يجمع كلمتها، تحت قول واحد، ويخلق تعاونا وتكاملا حقيقيًا،

بين أقطارها، فلا يجوز أن يكون بلد عربى – يملك مئات المليارات الفائضة عن ميزانيته، وآخـر– الجياعُ فيه أكثر من مسـتورى الحال – (مع بقـاء فروق بين المانح والممنوح، فى القدرات المالية).

– ولا يجـوز أن تظل – العشـوائيات – العربية، متفرقـةً، منها ما تطمع فيه إيران، ومنها ما تطمع فيه إسـرائيل، وكلها تُحرّكها كلمة من الجاثم فى البيت الأبيض، وتُسَكِّنُ منها (من) تشاء.

– بـل يجب أن يكـون للبلاد العربية كلها، بل هذه العشـوائيات العربية، سياسـة واحدة، ونظام اقتصادى واحد– وتكافل إنسانى واحد.

– عندإذٍ..،وعندإذٍ.. فقط يصبح العربى لا يُدخِل فى سياق كلامه كلمات أجنبية، بل يعتّز بعروبته، وبلغته العربية – وتصبح أسماء المحلات عربيةً، وعلى الأكثر يُكتب الاسم بالأجنبية بخط صغير وبين قوسين. ويكتب الاسم العربى بخط جهير.

– ولا يلبـس ثيابا عليها كلمات أجنبية، بل كلمات عربية– وتتحول وسـائل الإعلام المرئية والمسموعة – آليا – فى معظم برامجها إلى الفصحى..

– عندإذٍ..،وعنـدإذٍ.. فقـط تصبح هذه العشـوائيات من المقترحـات الجزئية اللغوية للنهوض بالعربية هى لبنات فى بناءٍ كامل متكامل، وليست لبنات متناثرة، قد يتعثر فى بعضها السائرون– !

لا خوفَ على العربية الفصحى:

– وحتى، فى جحيم هذه – العشوائيات – من الدول العربية، وفى واقع هذه اللبنات المتناثرة من المقترحات.. فلا خوفَ على العربية ! كيف؟

– لو كانت العربية ستنقرض، أو – على الأصح – تحمل جراثيم الانقراض، لانقرضت فـى عصـور الانحطاط، عندما أصبح الأدب زخرفةً وتزويقا وقرقعةَ شِـنانٍ، من دون معنى عميق أو فكر فتيق، وانزوت فى دور العلم– آن ذاك – وما أقلّها ! ! – ولانقرضت، عندما خطـط الأتراك لمصادرتها، وإحلال اللغة التركية، مكانها، فيما سُمِّى بموجة (التتريك) – ولانقرضت، عندما خطط الاستعمار الإنجليزى (والاستعمار الفرنسى) لانقراضها، حتى لقد وَضَـع – مهندسـا إنجليزيا – اسمـه(وِلْ كوكس) كتابَ قواعدَ للهجـةِ المصرية العامية، محاولةً منه (وحَسَبَ مخطط مرسوم) صرفَ الناس عن الفصحى إلى العامية– ولانقرضت،

والاستعمار الأمريكى الحالى يشجع بعض الشيوخ، ممن يغريهم الأصفر الرنان(أجَلْ – بعضَ الشيوخ) للتحدث والشرح والتفسير والقصّ باللهجات المحلية، إبعادا للناس عن الفصحى، ومن هؤلاء الشيوخ من – أثرى – من وراء ذلك!!

وحجتهم.. أن العامة لا يفهمون الفصحى. وهذا..كذبٌ ومَيْنٌ؛ لأنه لم يَعُدْ، بعد انتشار وسائل الإعلام والاتصال الحديثة – عامّةٌ أو عوامٌّ، بل أصبح الناس، حتى الأميون، مثقفين.. (وما أغلظ أكباد الذين يسمّون الذين يتظاهرون ضّد الفيلم المُسيء للرسول المعصوم: رعاعا وغوغاءَا، لأن وسائل الاتصال الحديثة لم تترك رعاعا وغوغاءَا – بل أوجدت مثقفين، وإن كانوا أمّيّين). ولأنّ مهارة – سماع – الفصحى أصبحت نامية، عند العوامّ، وعند رُعاة الأغنام، وعند عمال المزارع، والمعادن، حتى، إذا سمع أحدهم نشرة الأخبار من المذياع عاد فى المساء، يقول لأهله ما سمع، وهى تذاع بالفصحى لا بالعامية.

العربيةُ عصيّةٌ على الزوال لأسباب أربعة، هى:

– الأولُ: أن القرآن الكريم يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ – [الحِجْر– ٩] وحِفْظُ الذِّكْرْ لا يعنى حفظه محنّطا بين دفتيْ كتاب. وإنما يعنى تحقق مقاصده فى الحياة، من حيثُ تنظيم الحياة، وذلك.. لا يكون إلا بقراءته وتفهمه، ولن يكون ذلك بغير العربية الفصحى، لأن (روح القرآن) لا تتبدى إلا بالعربية – أما الترجمات فهي معانٍ بلا روح، ترجماتُ جسدٍ فَقَدَ الحياة، لهذا.. فحفظُ الله تعالى الذكرَ (القرآنَ) حِفْظٌ للعربية، وبالعربية.

– الثانى: أن العربية الفصحى لغة (إلهامية) – ألهمها الله تعالى العرب، فى شمال الجزيرة،قبل الإسلام، بقرابة مئتيْ سنة،(ولهذا حديث تفصيلى فى مكان [1] آخر، ولذا.. فقد جعلها الله خالدة الأصول، بحيث تُبنى عليها فروع، فلا تزول ومن أدلة ذلك:

(أ) أنه لم يوجد أثر قبل مئتيْ سنة، من الإسلام، فيه شعر فصيح أو نثر أو يتصل بالفصيح. ب– أنها لغة اشتقاقية ذات أصول ثابتة، فى العربية، يمكن أن تولّد من الفعل(كتب) مئة كلمة، عندما تستدعيها المعانى الجديدة. أمّا فى الإنجليزية – مثلا – فـ (كتب وكاتب) لهما أصوات، ومكتبة – لها أصوات أخرى – ومكتب – له أصوات

(١) فى القسم الثانى من هذا الكتاب.

ثالثة... وهكذا – ت– العربية... يشتق من كل كلمة منها، ولو كانت حرفا؛ أما نقول: هوّية – من :هو. و – عَنْعَنَ – من: عن،عن،عن، وأستحجر من (الحَجَر) وهى كلمة جامدة، بل نقول: تأوّهَ، من – شِبْهِ الفعل – آه – ث – وتتسم الفصحى – بالخِفة التى لا تتسم بها لغة أخرى. فلا تجمع حروفا، فى الكلمة الواحدة، يعسر نطقها، ولا توالىَ بين – حرفين ساكنين – خلافا للإنجليزية التى تجمع حرفين، بل وثلاثة حروف ساكنة متوالية...إلخ.

– **السببُ الثالثُ**: أن اللغة الوحيدة فى العالم التى عاشت – سبعةَ عَشَرَ قرنا، وما تزال– حيّةً – بعد نضجها، هى العربية الفصحى. أما اللّغات الأخرى.. فلا تعيش إلا خمسة قرون أو ستة، ثم تتحول إلى لغة أخرى. (ولكن وسائل حفظ الصوت الحديثة.. قد تجعل أعمار اللغات الحديثة – أطولَ، بقرن أو قرنين). وهذا الدليل – إلى الدليلين السابقين – تدل على أن الفصحى خالدة – كخلود القرآن.

– **السببُ الرابعُ**: نتيجةُ الأسباب الثلاثة السابقة – فقد تجاوزت العربية، كل المِحن والمعوقات، وأضحت إحدى اللغات العالمية، وأضحت لغة أربع مئة مليون عربى، وأكثرَ من مئة مليون مسلم متفرقين فى العالم.– تجاوزت المحن والمعوقات بأن أصبح يصدر فيها كل سنة ما لا يقل – تقديرا – عن مئة ألف كتاب، فى موضوعات مختلفة، وفى كل شهر ما لا يقلّ عن خمس مئة مجلة، وفى كل يوم ما لا يقل عن ألف جريدة. على حين لم يكن عُشْرَ هذا يصدر بها قبل مئة وخمسين – سنةً. ومع ذلك .. لم تتنقرض آن ذاك!

الخلاصةُ

أنه، إذا انتظم – العشوائياتِ العربيةَ (= الدولَ العربيةَ) مخططٌ تكامليّ واحد – بحيثُ يصبح لكل – عشوائية – دورها ووظيفتها: فى هذا المخطط التكامليّ – فإن الأمة ستشعر بعزتها وكرامتها، وستعتزّ بلغتها، وتمسى المباهاة باللغات الأخرى، من الماضى التعيس– وستصبح أمّةً محترمةً بين الأمم – لها قرارتها السياسية، والاقتصاديّة، والأخلاقيّة والإنسانية. وستصبح عشوائيات هذه المقترحات الجزئية – لبناتٍ فى بناءٍ لُغويٍّ سامق، تنجذب إليه قبلَ أن يدعوَها، وعندإذٍ.. سنساهم فى بناء الحضارة، وصُنع الإنسان الحرّ – العادل – الإنسانى الأخلاقى – المؤمن بالمساواة، بين البشر – والمؤمن بالسلام

العالميّ- الذى نخشـــى أن تُدمّره- تراسانات الأســـلحة النووية، عندما ينبت حاكم غشوم كهتلر، يُصيبه هَوَسُ حُكم العالم أو تدميرِه - ويكون على رأس دولة عُظمى- كأمريكا، أو كالصين، أو حتى كروســـيا التى تســـعى نحوَ - القيصرة - والله تعالى هو الصارف للقلوب عن الشرّ إلى الخير البعيد.

obeikandl.com

الموضوعُ الثامنُ

الألفاظُ الاصطلاحيةُ الشرعيةُ فى القرآن الكريم وهل حدث لها تطوّرٌ دلالىُ؟[1]

صدر قبل شهور كتاب قيِّم لصديقى الأستاذ (عودة خليل أبو عودة)، عنوانه: (التطوّرُ الدلالىّ بين لغةِ الشّعرِ الجاهليِّ ولغةِ القرآنِ الكريم) وقد عشت مع هذا الكتاب أوقاتا ممتعة، لأنه يعرض لموضوع لم يَقُلِ الذين كتبوا فيه تفصيلا تقف عنده النفس، وقد شَفى غليلها. فقد عرض القدامى لأطراف من هذا الموضوع ولكن لم يستوفوا. وأهم كتاب قديم عرض للتطور فى الدلالة فى القرآن الكريم والحديث الشريف – مُقَارنةً – بالشعر الجاهلى، هو كتاب: (الزينةُ فى الكلماتِ الإسلاميةِ العربيّةِ) لمؤلفه أبى حاتم الرّازى المتوفى سنة (٣٢٢) هجرية، غير أن كتاب الأستاذ عودة أوضحُ منهجا وأكثر استيعابا لمادة الموضوع، مع إضافة منهجية قيّمة؛ فقد قسّم المصطلحات القرآنية إلى مجموعات، تَبَعا لموضوعها فمنها مصطلحات فى العقيدة، وأخرى فى أركان الإسلام، وثالثة فى الجهاد والسلوك.. إلخ.

وقد صبر الكاتب وثابر على تتبُّع ما ورد فى المعاجم والشعر الجاهلى فنظر فى حوالَيْ مئتين وخمسين كلمة (٢٥٠)؛ كلٍّ منها كانت اصطلاحا فى الإسلام. وقد عرض – بذلك – معلومات كثيرة شائقة حول كثير من الألفاظ، ثم اختار منها المعنى اللغوى الذى يصلها بمعناها الاصطلاحي[2] الإسلامى، طبقا لأحد أساليب تطور الدلالة؛ هذه الأساليب (أو القوانين) الموصوفة، فى كتب فقه اللّغة، وكانت نظرته نافذة فى معظم الحالات، بحيث اهتدى إلى السياق المعنوى واللغوى الجاهلى يناسب المعنى الاصطلاحى الإسلامى هذا هو الأصل الملحوظ فى عمل صاحب الكتاب.

---

(١) كتبت سنة – ١٩٩٢م.

(٢) الله تعالى أنزل كلامه – بدءًا – لمعانيه. وإنما سمى العلماء بعض الكلمات – مصطلحات – لأن فى العربية الفصحى ألفاظ تماثلها، ولكن لمعنى غير المعنى الذى أنزل الله تعالى. ولكن بين المعنيين للكلمة – صلة – فالزكاة – مثلا – فى الشرع هى أخذ نصيب معلوم من أموال الأغنياء إلى الفقراء. بَيْدَ أنها فى اللغة تعنى – النماء – وبين المعنيين – صلة – فالزكاة من أسباب نموّ المال، قال تعالى: [يمحق الله الربا، ويُربى الصدقات] – (البقرة – ٢٧٦).

بَيْـدَ أنى وقفت عنـد «الصلة» المعنوية واللغوية، التـى اختارها فى بعض الألفاظ، فلم أَجِـدْ مُجْمَـلَ اجتهاد الكاتـب مُقنعا، وآخذ، علـى ذلك، مثلا واحدا؛ كلمة من أشـهر الاصطلاحات الإسـلامية، وأهمها فى العقيدة الإسلامية، وهى كلمة «الصلاة». إن الكاتب يعرض ما جاء عنها فى كتب اللّغة وفى الشعر الجاهلى، وفى كتاب من المؤلفات الحديثة كذلك، على مدى صفحتين ونصف صفحة، ثم يخلص إلى القول بأن الصلاة لم تكن بمعنى صَلَوِيِّ الفرس أو الفرس الذى يأتى، فى السـباق، تاليا للجواد السـابق، وأنها «لم تؤخذ مـن الصلة أو اللـزوم، كما ذكرت بعض الآراء، على الرغم مـن الصلة القريبة بين الصلاة – بمفهومهـا الدينـى – وبين الصلة واللزوم. وربما تأثر أصحـاب هذا الرأى بهيئة الصلاة ومعناها فى الإسلام، وقرنوا بينها وبين كلمة «صلة» برغم (الفرق) اللغوى بين صَلَىَ ووصل. ثـم يقول: «وأرجح أن الصلاة فى معناها الإسـلامى، مأخوذة مـن معنى ««الدعاء والطلب وذلـك للصلة القريبة فى المعنى بينها بين الدعاء والطلب. وهذا يدل على أن القرآن الكريم اسـتعمل ما اسـتعمله العرب فى شـعرهم، إلا أن القرآن خَصّص الصلاة بالهيئة المعروفة، فأصبحت هى الركن الشّهير من أركان الإسلام. وأشد ما يدعم هذا الرّأى أن القرآن الكريم استعمل لفظ «صلي» بمعنى الدعاء» ص١٨٢، ١٨٣.

أقول : واضح أن الكاتب رجّح أن معنى الصلاة، فى مفهومها الإسـلامى، مأخوذ من معنـى الدعـاء والطلب ولكنه بهذا الترجيح يقف عند الفروع ولا يغوص نحو الأصول. فمن المعروف أن الدعاء والطلب من معانى كلمة (الصلاة)، ولكن.. من أين جاء هذا المعنى لكلمة (الصلاة)؟ لكى نعرف ذلك.. لابد من البحث عن الأصل اللغوى الذى اشتقت منه الكلمة، لأنه الطريق الوحيدة التى نجد على جانبيها سلسـلة المعانى التى توصّلنا إلى معنى الدعاء فى الصلاة، ثم إلى معنى هذه العبادة الإسلامية المعروفة – فيها–. علما أن كلمة – الصلاة – نزلت – بدءًا – بمعناها القرآنى الاصطلاحى.

من حيثُ المعنى.. فإنى أرى أن المعنى الأول هو «الوصل» بمعنى مطلق العلاقة أو الرابطة، ثم خُصِّصَ إلى معنى العلاقة الطيبة، ثم خُصِّصَ، مرة أخرى، إلى معنى الكلام، فى العلاقة بـين اثنـين أو فريقين. ثم خُصص الكلام الطيب بالدعاء الطيـب، لأن الدعاء الطيب نوع مـن أنواع العلاقة الطيبة، ثم خصّص، مرة أخـرى ثالثة، فأصبح نوعا خاصا من الدعاء، وهـو هذا الدعاء الموجّه إلى الله تعالى. المفتتح بالتكبير، المختتم بالتسـليم، الذى يضم

بينهمـا قراءة من القرآن، وعبارات معلومة، وحركات معروفة وهذا الدعاء الموجّه إلى الله تعالـى هـو (الصلاة)، أقول هذا.. لأن تطور اللّغة، فى المعنى، من العامّ إلى الخاصّ ثم إلى الأخصّ، أوسـع من تطورها فى الاتجاه المعاكس. وهذا.. يتفق والتطورَ، العلميَّ والعقليَّ، الذى يسـير فى اتجاه التدقيق، والتخصيص، والتفصيل، وإن كان التطور من الخاص إلى العام.. يقع، أحيانا. علما أن – الصلاة – الإسلامية .. لم تتطور من المعانى السابقة، بل السـابقة – بينها وبين الصلاة – صلة – وليسـت الصلاة – متطوّرة عن هذه المعانى، لأن الصلاة من كلام القرآن – الذى هو كلام الله – السابق على – إلهام – الله تعالى العربَ .. العربيـة الفصحى – وكلام الله صفته، وصفات الله قديمة – والعربية الفصحى.. حادثة، ولا يتولد القديم أو يتطور من الحادث.

أما من حيث اللفظ.. فإنى أرى الأصل اللغوى للفظ «الصلاة» هو «الوصل»، لأن الصلاة هى كما سـلف، نوع من أنـواع الوصل أو البلوغ. ولكنه لم يُشْـتَقّ من الفعل «وصل»، فى الترتيـب الـذى وردت عليه حروفه إنما اشـتق مـن مادته عن طريق ما سمّـاه الصرفيون «الاشتقاق الكبير». والاشتقاق الكبير هذا.. يقوم على أساس ارتباطٍ مُطلقٍ غيرِ مُقيّدٍ بترتيب، بين مجموعات ثلاثية صوتية ترجع تقاليبها السِّـتة، وما يتصرف من كل منها. إلى مدلول واحـد عامّ مهما تغايـر ترتيبها الصوتى. من ذلك – مثلا – المـادة ذات الحروف الثلاثة (س م ل). هـذه المادة قلبها العبقرى ابـنُ جنى فى كتابه «الخصائص»، فرأى أنها تتفرع إلى الأصول الفعلية التالية: (سَمَلَ ثم سـلم ثم ملس ثم لمس). وهذه تقاليب مسـتعملة. ثم يأتى منها تقليبان مُهملان هما (مَسَلَ ثم لَسَمَ). والمعنى العام لهذه التقاليب هو (الإِصْحابُ والملاينةُ) – (الخصائص ٥٢٩/١).

وإن (وَصَلَ).. على المبدأ نفسـه، يأتى منها بضعة تقاليب هى (وَصَلَ ثم صال، وصَوَلَ ثم وَلَصَ ثم لصا، وأصلها: لصَوَ، ثم لاصَ، وأصلها: لوَصَ ثم صلا وأصلها: صَلوَ) والمعنى العام لهذه المادة، فى تقاليبها السِّتة، هو: الارتباط والبلوغ.

والفعلُ (وصل) هو أصل المادة، ومعنى وصل الشـيء بالشـيء: ربطـه به أو لأَمَهُ به، ومعنـى صال على قِرْنه: سـطا، وقاتل، والسـطو والمقاتلة فيهما بلـوغ وارتباط بين طرفى المفاعلـة ومعنى لصا إليه: انضم إليه، والانضمام بلوغ وارتباط. ومعنى لاصَ: لَمَحَ من خلل الباب ونحوه، وإذا لمحت الشىء فقد بلغه بصرُكَ.

ومعنى (صلا): هو البلوغ والارتباط، على نحو ما، يقول ابن منظور فى معجم (لسان العرب)، فى مادة (صلا): «وصلَوْتَ الظَّهْرَ: ضربت صَلاهُ، أو أصبته بشىء، سهم أو غيره..» والصلا (هو موضع العظام الأخير فى الظهر أو هو أحد العظمتين اللتين تكتنفان الذنب من الناقة وغيرها) .وضَرْبُ (الصلا) وإصابته فيه بلوغ له أو اتصال به.

ولكى نصل مادة هذا الفعل بالاتصال، على النحو الذى انتهى إليه فى الصلاة الإسلامية المعروفة.. نرى أنه مرَّ بعدة تطورات معنوية حتى انتهى من الاتصال بالضرب إلى الاتصال بوسائلَ أخرى غير الضرب، وبعيدة عنه وسائلَ روحيةٍ ومادية. بل قد يكون الذى حدث فى التطور أنه لُمِحَتْ علاقة الاتصال دون غيرها، ثم أُخِذَتْ – دَفْعةً واحدةً – من الاتصال بالضرب إلى الاتصال بالدعاء والاسترحام والثناء. على أن ذلك كله.. لم يَجْرِ على الفِعْل الثلاثى وإنما جرى على مضعّفه الرباعى، أى: إن هذه المعانى اللاحقة قد ارتبطت بالفعل (صَلّى) لا بالفعل (صلا). ثم وَرَدَ هذا الفعل عند نزول الإسلام، بمعناه الاصطلاحى المعروف، ولا سيما فى حالة الإطلاق وليست الصلاة سوى (دعاءٍ، واسترحام، وثناء).

ومما يؤكد أن (الصلاة) مشتقة من الفعل (صَلّى)، وهو مُضَعّفُ الفعلِ الثلاثى (صَلا، وأَصْلُهُ صَلَوَ).. أن صاحب (لسان العرب).. يورد لفظ (صلا) ثم يورد، بعده، مباشرة قوله: « الصلاةُ: الركوع والسجود». وهذا يعنى أن هذا العالمَ الكبير يرى أن الصلاة مشتقة من مادة الفعل (صلا)، وإلا.. لما أوردها فى شرحه لمعنى لَفظة (صلا).

خلاصة ذلك.. أن لفظ (الصلاة) مُشتق من مادة (وصل) فى أحد تقاليبها وهو (صلا)، عن طريق قاعدة (الاشتقاق الكبير)، بعد تضعيف هذه الصيغة إلى رُباعِيِّها (صَلّى). والصلاة هى اسم المصدر، أمّا المصدر فهو «تصلية» وهو مهمل مع هذه المادة، غير أن صورته استعملت مع معنى آخر لمادة (صَلّى)، كما ورد فى القرآن الكريم: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٩٤] أى: إحراق بالنار.

على هذا.. فإنّا نجد صلة ما بين لفظ «المُصَلِّي» وهو الحصان الذى يأتى تاليا «للمجلى؛ والمجلّى هو الحصان السابق) وبين لفظ الصلاة». لأن الحصان المصَلّى يكاد يتصل بصلا سابقه المُجَلّى أى: يكاد يبلغه. لأن اللفظتين: (الحصانَ المصلّيَ، والصلاةَ) مُشتقان من أحد تقاليب أصل لغوى واحد.. يكون بين أفراده جميعها.. معنىً عام مشترك، ثم يختص

كل واحد منها بخصوصية فى المعنى، تميّزه من غيره منها. فكيف إذا كان اللّفظان يعودان إلـى أحد التقاليب عَيْنِهِ؟ إن الفرق لن يكون إلا من جهة اختلاف الصيغة ومن جهة تغير الدلالـة، فـي تخصيصها بمعنى محدد والشـخص المصلّى (الذى يقيم الصلاة) هو شـبيه بالحصان المصلّى = الحصانُ المصلّى يكان يتصل بصلا سابقة. والشخص المصلّى يحاول أن يتصل – روحيا – بالله تعالى.

ولكن.. ليس من علاقة – فى الاشتقاق أو المعنى – بين الصلاة وبين الفعل (صَلى) الذى آخـرُهُ ألف مقصورة، وما يشـتق منه من صيغ، لأنـه بمعنى: عَرَضَهُ على النار. ولا بينهما وبين الفعل (صَلِيَ) الذى آخره ياء، وما يشتق منه، لأنه بمعنى: تَدَفَّأَ.

ويجدر أن نذكر.. أن الأصل هو أن تَخَصَّص الكلمةُ، فى الفترة الواحدة، لمعنىً واحد، لأن دقـة الفكر تقتضى ذلـك، ولكن يحدث أن يكون للكلمة الواحدة، فى الفترة الواحدة، أكثـر مـن معنى فيتعايش المعنيـان أو الثلاثة، إلى حـين، أولا – لأن المعنيين يتصارعان – وقتا – حتى يتغلب أحدهما على الآخر، وغالبا ما يتغلب الجديد، وثانيا – لأن إيجاد لفظ جديد للمعنى الجديد يكون كالمتعذر، أحيانا. وثالثا – لأن الاستسهال يقود إلى الاكتفاء باللفظ القديم، وفى أحيان قليلة.

وبعدُ:

فإن كتاب (التطوّر الدّلالى – بين لغة الشـعر الجاهلـى ولغة القرآن الكريم) من الكتب الجادة التى تستحق التنويه لأن مؤلفه بذل جُهودا كبيرة فى جمع مادته، وفى تصنيفها، وفى مناقشتها، ليخلص من ذلك إلى ما يراه أدنى إلى الصواب.

ثـم.. لأن الكاتب قد صنّف الألفاظ فى مجموعات، حسـب المعانـى.. فإنّ كتابه يُعَدُّ «معجمَ مَعانٍ» مُتخصصا فى الألفاظ الاصطلاحية فى القرآن الكريم.

بَيْـدَ أنى أرى العنوان ليس دقيقا، لأنه يُشـعر بأن ها هنا مقارنةً بين تطوَر الدلالة فى الشـعر الجاهلى، وبين تطورها فى القرآن الكريم، والأمر ليس كذلك . لأن الكتاب يعرض لألفـاظ كان لها معنىً فى الشـعر الجاهلى، ثم ..جاء لهـا معنىً آخرُ فى الكتاب العزيز، أقول: وهذا ليس تطوّرا مفتوحا، وإنما هو تكَوُّنٌ اصطلاحى/ شـرعى، وليس تطورا للمعنى اللغوىّ، من معنىً إلى معنىً. فكان من واجب العنوان أن يتضمن إشارة إلى هذه الخصوصية الشرعية فى الدلالة. والله تعالى يتولى العاملين لوجهه الكريم.

وبهذا.. فقيمة هذا الكتاب الأولى تأتى من أنه «إحصاء» وافٍ للكلمات التى استعملها القرآن الكريم اصطلاحيا، فأنزل لها معنىً شرعيا يُفارق معناها اللغوى الذى عُرف لها فى الشعر الجاهلى بعض مُفارقة لأن ألفاظ القرآن لم تتطور من الشعر الجاهلى فهى مستقلة عنه – كما سبق القول. ثم.. تلا هذه القيمة قيم أخرى، قد أشرنا إلى بعضها.

obeikandl.com

الموضوعُ التاسعُ

أحقًا - أنّ القرآنَ الكريمَ.. أُنزِلَ باللغةِ العربيةِ الفصحى؟

– قـرأت كثيرا مما قيل عن أن القرآن الكريم نـزل باللغة العربية الفصحى. ومع طُول تأمُّلى وتدبّرى للأمر – وجدتُ– مع كل ما قيل– أنه لا يزال فى نفسى شىء من «حتى»، أى – لا يزال فى نفسى شيء من هذا القول: أُوَضِّحُهُ فيما يأتى: ، فالقول بالتطور الدلالى بين الشعر الجاهلى، والقرآن الكريم.. غير مقبول عندى، كما جاء فى عنوان كتاب لزميلنا الدكتـور عـودة أبو عودة لأن التطور من عصر إلى عصـر، أو من موضوع إلى موضوع، أو من شـاعر (أو أديب، على العموم) إلى شـاعر، بينهما فترة زمنيّة معتبرة – التطور هذا.. من حيـثُ دلالةُ الألفاظ.. شـيء طبيعى فى مثل ما ذكرتُ.. أمّـا أن تُذْكَرَ كلمةُ «التطوّر» بين الشعر الجاهلى مثلا، وبين القرآن الكريم، فتصوّرٌ خاطئ، ولفظٌ ومعناهُ.. خاطئان.

– ذلك.. لأن القرآن لم تتطور لُغتُه من لغة الشـعر الجاهلى، أو من اللغة العربية قبل نزول الإسـلام. وإنما القرآن، لُغتُهُ مُسـتقلة عن لغة الشـعر الجاهلى، وعن اللغة العربية. وإذنْ.. دلالاتُـه ليسـت تطوّرا من دلالات الشـعر الجاهلى، إنما هـى أُنزلت، من اللوح المحفوظ – حاملةً معانِيَها اللغوية والشرعية، ولا علاقة لها بمعانى الشعر الجاهلى وألفاظ الشعر الجاهلى.

– ولكنْ.. كيف ذلك؟

– الجوابُ.. كما يأتى:

١– معلوم أنه وَقَعَ خلاف خطير، فى التاريخ، حول القرآن الكريم، بين المعتزلة (وهم إحدى فِرَقِ السُّنّة) وبين الأشاعرة – وهم أهل السُّنّة، حول مسألة (خَلْقِ القرآن)– المعتزلةِ الذين قدّموا العقل على النقل– قالوا: القرآن.. مخلوق. أمّا أهل السُّنّة، فقالوا: القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله.. قديم (ولا يصح أن يُعَدَّ مخلوقا). حتى وقعت مِحْنةُ (خَلْقِ القرآن) فى زَمَنِ حاكم المسـلمين، آنَ ذاك– المأمون– فقد امتَحَنَ المعتزلةُ الذين أدناهم المأمون، إذْ اعتنق مذهبهم – عشرات العلماء. وكلهم يقول – كما يريد المعتزلة– القرآن مخلوق، لكى ينجوا من العقاب، ومن قطع الأرزاق والأسـباب–! حاشـا نفرا قليلين، منهم الإمام أحمد

ابن حنبل[1]- رضى الله عنه- وشيخُهُ الذى مات فى السجن- يرحمه الله.

- والحقُّ.. أن القرآنَ كلامُ اللهِ، وكلام الله قديم، لا أوّلَ لهُ، لأنّ كلام الله تعالى.. صفة من صفاته، ولا فرْقَ - عندى- بين الذات والصفات، فصفات الله تعالى قديمة أزلية. وليس هنا سياق التفصيل- فيها.

٢ - وكلامُ الله تعالى.. ليس ألفاظا متفرقةً - كالألفاظ فى المعجم- يُضَمُّ بعضُها إلى بعض فى تعابير وتراكيب- لكى تعبّر عن مَعانٍ وأفكار- كما يفعل البشر، بشكل عامّ. بل - كلام الله تعالى هو معانٍ مُلتحمةٌ بألفاظها، فلم تَكُنْ المعانى، أوّلا، ثم عُبِّرَ عنها بألفاظ، وليست ألفاظا متناثرة، ضُمّ بعضها إلى بعض، عندما جدّت المعانى لتعبِّر عنها. وإنما المعانى والألفاظ، سبيكة واحدة لا انفصامَ لها.

- وإذن.. القرآن الكريم شيء، واللغة العربية شيء آخر. القرآن الكريم.. قديم، أمّا اللغة العربية فحادثة على الأرض - ألْهمها الله تعالى العربَ إلهاما- كما وضحنا ذلك فى ثلاثة بحوث نشرت -بأدلتها- فى مجلة (هدى الإسلام -الأعداد -٥، ٦، ٧) لسنة- ٢٠٠٥م. فكيف يكون القديم مأخوذا من الحادث؟ هذا.. أمر يتناقض مع «بِنْيَة» العقل - أصلا.

- وهنا.. يأتى تساؤل: أليست ألفاظ القرآن موجودةً مثلُها فى اللغة العربية؟

- الجوابُ.. أجلْ-

ولكنّ وجود مثل ألفاظ القرآن فى ألفاظ العربية.. لا يعنى أكثرَ من وجود «مُماثلة»، فإذا قال الله تعالى - مثلا- فى أوّل خمس آيات، نزلت على قلب رسولنا العظيم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق- ١) فهذه الكلمات السّتُّ.. موجودٌ مثلُها فى ألفاظ العربية، لكنه وجود مماثلة، وليس وجود «استعانة»، لا القرآن استعان بألفاظ العربية، ولا العربية استعانت بألفاظ القرآن،- إلا بعد نزوله. فمن غير المعقول - مثلا- أن تكون الألفاظ التى استعملها الجاحظ، قد أخذها من ألفاظ طه حسين، والجاحظ مضى إلى رحمة ربّه قبل أن

---

(١) الإمام أحمد - ابن- حنبل. كلمة (ابن) - أينما وردت، سواءٌ أكانت بين علمين أم لم تكن.. أكتبها مبدوءة (بألف)، لأن حذف الألف منها فى بعض الحالات قد جعل إملاءها صعبا لأنه جعل لها أربع قواعد، من غير أن يكون لحذف الألف «علة» منطقية.

وسبَبَ خطأ فى قراءتها، فالمغاربة - مثلا- يصوتون (بِنْ بركة - بِنْ جديد) بدل (ابن بركة - ابن جديد). فإذنْ.. إبقاء الألف، فى أوّلها، دائما هو إصلاح إملائى. وهى لا تصوّت فى دَرْج الكلام مثل ألف (القمر) - فلماذا لا نحذف ألف القمر، ونحذف ألف (ابن)؟ أين المنطق فى هذا التعارض؟

يبدأ طه حسين الكتابة بحوالَيْ عَشَرَة قرون. وإذن، العلاقة بين ألفاظ الجاحظ، وألفاظ طه، عندما يكون النظر إلى ألْفاظ الجاحظ، هو مُجرّد مماثلة ليس أكثر. وإذن.. الجاحظ لم يأخذ، ولا لفظة واحدة من طه. (أمّا طه فأخذ من ألفاظ الجاحظ، ومن أسلوبه كثيرا، لأنه متأخر عنه. وهذا.. شيء معقول وطبيعي – أنْ يأخذ اللاحق من السابق).

– يضاف إلى هذا أننا نتجوّز عندما نقول: ألفاظُ القرآن.

– والصوابُ هو (كلامُ القرآن)، لأن الألفاظ فيه.. لا ينفصل بعضها عن بعض – كما لا تنفصل حروف الكلمة – بعضها عن بعض – إذا أردنا أداءَ معنىً. ولهذا.. فهل في (كلام) اللغة العربية.. شيء يماثل (كلام) القرآن، حتى لو كانت المماثلة – بجملة واحدة فقط. لأن التماثل – عندئذٍ..– لا يكون معناهُ.. إلا الاقتباس من نصّ القرآن. ولا يحتمل وجها آخر. وهذا الأمرُ – فَيْصَلٌ – في الحكم بأن القرآن شيء، وأن اللغة العربية شيء آخر. اللغةُ العربيةُ.. ألفاظٌ في (المعجم) يُضَمُّ بعضُها إلى بعض لتأليف (كلام) ذى معانٍ، قد تكون هذه المعاني جيدة أو رديئة. أمّا القرآن.. (فكلامٌ) – لا ألفاظٌ– كُلاًّ مُترابطا ترابطا كاملا مع معانِيهِ– التي هي دائما معانٍ في (الذروة) التي لا تُبارى، ولا تُجارى، لأنها (بألفاظها) كلام الله تعالى الذى ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلت – ٤٢].

– وتساؤلٌ آخرُ: أمّا قال الخليفةُ عثمانُ ابنُ عَفّانَ – رضى الله عنه– عندما أمر بتوحيد رسم المصاحف (وما يتبع تعدّد الرسم، من اختلافٍ في القراءات)– في رسم واحد، (سُمّى، بعد ذلك: الرسم العثماني). فقال للجنة الرسم: (إذا اختلفتم في شيء فاكتبوهُ بلهجة قريش، فإنما القرآنُ بها أُنزل). فما معنى قوله: (فإنما القرآن بلهجة قريش.. أُنزل)؟

– الجواب.. ليس من المفروض أن عثمانَ كان يتعمق التفكير، في القرآن، وفي اللغة التي أنزل بها – ذلك.. لأن العقل العربى لم يكن قد وصل إلى مرحلة «التحليل» بَعْدُ، بل كانوا يأخذون الأشياء من أقرب مَأْتى ويلمحون الحكم– لمحا. ومن المعروف أن الفِرقَ الإسلامية التي كان عندها – بعضُ – التحليل الفكريّ، لم تنشأ إلاّ بعد استشهاد الإمام علي ابن أبي طالب – رضى الله عنه – وقولُ عثمانَ (ومثلُهُ ما لا يحصى من المسلمين) لا يعنى أكثر من التشبيه بسبب التماثل – من دون غَوْصٍ إلى الأعماق.

– إذن.. عثمانُ – رضىَ الله عنه– وجَدَ أن معظم ألفاظ القرآن – مُماثِلةٌ– لألفاظ في

لغــة قريــش.. فكان قوله قائما على هذه المماثلة الظاهرية– ليس أبعدَ. أقولُ: ولكنّ المماثلة ليست فيْصلا بأخْذِ أحد المتماثلين من الآخر، بل –الأخذُ مستحيل عندما – يُتوَهّمُ – أن النصّ السابق قد أخذ من اللاحق، لمجرّد المماثلة.

– وأقــول: صحيــح أن اللغة العربية –ألْهمها الله تعــالى– إلهاما، للعرب، ذلك لكى تكون خالدة، من أجل أن تصلح لحمل القرآن الخالد . و لا يعقلُ أن يُعبّر عن خالد بفانٍ . وبهذه المماثلة بين هذه اللغة الخالدة، وبين ألْفاظ القرآن – يظلّ الناس على طول الدهر.. قادرين على فَهْم القرآن الخالد، وعلى تفســيره. ولكن هذا التماثُلَ لا يصحّ، بسببه – عند العقل– أنه يؤدى إلى نتيجةٍ، فحواها أن الســابق قد أخذ من اللاحق، بل – العقل ينفى ذلك نفْيًا قاطعا.

– النتيجة الأولى من هذا.. أن اللغة العربية ليست أصلَ القرآن، وأن القرآنَ ليس أصلَ العربيــة، مــع وجود المماثلة. لأن القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله تعالى لا يُؤَخَذُ من كلام أُلْهِمَهُ البشرُ.

– والنتيجــة الثانية أن القــرآن قديم، وأمّا اللغة العربية فحادثة. وإذن.. القرآن الكريم لم ينــزل باللغة العربية – قطعا. مع قيــام المماثلة بين ألفاظِ القرآن، وبعضِ الألفاظِ باللغة العربيــة– (علما أن ألفاظ القرآن لا تســاوى – بالتقريب– أكثرَ من أربعين بالمئة من ألفاظ العربيــة (٤٠٪). أمّا أنواع تراكيب القرآن – فتكاد تماثل كُلّ أنواع التراكيب فى العربية. لأن الذى يحفظ للغة شخصيتها – بالدرجة الأولى، هو التراكيب، ثم تأتى الألفاظ. بَيْدَ أن التعابير فى القرآن مَسْــبوكةٌ[1] – ســبكا فريدا لا تماثلَ بينها، وبين تعابير العربية، أبدا. وهذا.. أحد وجوه الإعجاز فى القرآن.

والنتيجــة الثالثــة أنّ ألْفاظ القرآن وتراكيبهُ فصيحة، مئــةً بالمئة (١٠٠٪) – أمّا ألفاظ العربية وتراكيبها.. ففصيحة بنســبة خمسٍ وتســعين بالمئــة (٩٥٪) – تقريبا، لأن بعضا مــن ألفــاظ العربية.. حُوشِــيّ. وقد يكذب بعض الأعراب، أو بعــض عرب البادية – فى روايته – طلبا للمال، أو للشــهرة. ومثل ذلك فى التراكيب، فقد يتكلفُ البدوى، ما ليس

(١) (مسبوكة سبكا) – ما اصطُلح عليه، منذُ الجاحظ أنهم قالوا (نَظْمُ القرآن). بَيْدَ أن كلمة (نظم) لها معنى آخر، وهو المنظومات الشعرية، أى – هى الكلام الموزون المقفى الذى ليس شعرا فنيا. ومع أن الكلمة يمكن أن تأخذ معنيين، وأكثر – كلُها.. بينها علاقة. غير أنى فضلت استعمال كلمة (سَبْك) القرآن، بَدَلَ (نظم) القرآن، تنزيها له عما تُشعِرُ به كلمة النظم من أنها تدل على كلام لا جمالَ فيه، كنظم– المتون.

صحيحا من التراكيب، أو هو صحيح، ولكنه معقد، نظرا لخشونة بعض البيئات البدوية، فلا يعود صالحا للبيئة الحضاريّة.

– النتيجــةُ الرابعــةُ.. أنه، لو أُنــزل القرآن باللغة العربية – فــإن معنى ذلك أن الله تعالى– تَنَزّهَ– كانت لديه مَعانٍ، ثم.. استعار لها ألْفاظا من اللغة العربية، لكى تظهر هذه المعانــى بهذه الألفاظ، وهذا.. غــير مقبول من ناحيتين:– الأولى.. أن القرآن بهذا المعنى– حاشــاهُ– حادث. ومن المعلوم أن القرآن قديم، لأنه كلام الله تعالى. والناحية الثانية.. أن المعانــيَ التــى تتولّد بغير أن تقــوم بلغة، ثم تُؤخذ لها ألفاظ من لغــة – ما– فإن التطابق التــامّ لــن يكون كاملا بين معنى العبارة، أو الجملــة، أو الفكرة – وبين الألفاظ المعبّر بها عنها، لأن من شــروط البلاغة – عند البشــر– أن يبزغ اللفظ فــى اللحظة التى يبزغ فيها المعنــى– الجزئــى، أو الكُلّى– وكلما كان بزوغهما أقربَ إلى أن يكون بلا فاصل زمنى بين بزوغ المعنى وبزوغ اللفظ – كان الكلام أعلى فى درجة البلاغة. فأســاليب البشــر لا تبلغ الكمال المعجز كالقرآن.

– وإذن.. فكيف يمكن تصوُّرُ فاصلٍ زمنى – مهما ضَؤُلُ– بين المعانى، والأفكار، وبين الألفاظ التى عَبّرت عنها فى القرآن؟ إن ذلك لا يتفق أبدا مع «سَبْكِ» القرآن– المعجز؟

– إن العقــل.. لا يقبــل أن يكون الــكلام «معجزا» يتفوّق على قدرات البشــر – تَفَوُّقا يستحيل الاقتراب منه – بَلْهَ اللحاق به– ثم.. يُبنى على مرحلتين– مرحلة قيام المعانى، تليها مرحلة التعبير عنها بكلام.

– وإن مثل هذا التصوّر.. لا يليق أن يجريَ معه مُؤمن، لأنه لا يتفق، بحال من الأحوال، مع قدرة الله تعالى الذى وصف نفسه بأنه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج– ١٦].

– الله تعــالى الكاملُ – المطلقُ الكمال– كُلُّ صفاته كاملة– كمالا مطلقا. وكلام الله تعالى صفتُــهُ– فكلامُــهُ كاملٌ – كمالا مطلقا. والكمالُ المطلقُ لا يَصِحّ معه إلاّ أن كلام الله تعالى لا يجرى عليه ما يجرى على كلام البشــر، فكلام الله ذو – سَــبْكٍ– بلا زَمْن، فالكلام الذى قامــت بــه المعانى الجزئية والمعانى الكليّة، هو الكلام الــذى قام بالمعانى – كما قامت به المعانــى – فلا يجوز تصوُّرُ أحدهما دون تصوّر الآخر. إن القرآن – لفظا ومعنىً– ســبيكة واحدة، لا يمكن (أو – لا يجوز) تصوُّرها إلا بما هى عليه.

يضــاف إلى هــذا أن القرآن حَكَمٌ على العربية الفصحى، وليســت هى حكما عليه. فلو كان القــرآن معانى اســتعيرت له ألفاظ مــن العربية الفصحى.. لكانت هــى حكما عليه.

وهذا .. لا يقول به عاقل أو عالم. فإذا اختُلف فى أمرٍ فى العربية كان الفيصل فى صحته أو خطئه ما ورد فى القرآن.

وعلى هذا.. فعنوان كتابٍ زميلنا الدكتور عودة أبو عودة- خاطئ، من وجهة نظر- شرعية، وعقلية -معا. فالقرآن - كما أسلفنا- لم تتطور معانى ألفاظه- الشرعية واللغوية من الشعر الجاهلى، ولا علاقةَ لها بالشعر الجاهلى، وباللغة العربية - إلاّ من حيثُ أنهما - وسيلة- «تفسير - لبعض ما ورد فى القرآن، لا فى كلّ ما ورد فى القرآن؛ لأن بعضَهُ واضح بنفسه، وبعضُهُ يُوَضّحهُ السياق، وبعضٌ منه يُوَضّح بعضا آخرَ. كتاب الدكتور عودة هذا، أهدانيه قبل ما يقرب من (عَقْدين)- وهذا الكتاب هو الذى حفزنى إلى كتابة هذا - الرأى- «التأصيلي» الذى أراه - أنا- يضع الأمور فى نصابها - إن شاء الله- ويثبّتها فى أبوابها، ويضعها فى محرابها. وعنوان كتاب الدكتور عودة هو: (التطوّر الدلالى بين لغة الشعر، ولغة القرآن). ولو كان العنوان (الفرْق الدلالى) - لجازَ.

- سؤالٌ ثالث: القرآن يقول ببضع آيات ما يوضح أنه أُنزل باللغة العربية، فما جوابك على هذا؟ مثلا يقول القرآن: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء- ١٩٥]. و(به- تعود على القرآن). ويقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف -٢] - وقال: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر -٢٨]. فماذا تقول فى ذلك؟

الجوابُ.. بكلمة واحدة (ثم.. يتْبعها كلمات): معنى (عربيا) .. (فصيحا)!! فمعنى (بلسان عربى مبين) هو: بلسان فصيح مبين. ومعنى (قرآنا عربيًا) هو: (قرآنا فصيحا).

- وأقول - للتفصيل-: فى الآية الأولى (اللسان العربى المبين) لا يعود على القرآن - وَحْدَهُ - وإنما يعود أيضا على الرسول البليغ. أى - لأن القرآن نزل بلغة - فصحى[1]- معجزة.. فأمْرُ الله رسوله أن ينذر الناس - بلسان عربى مبين- أى - بلسان فصيح مُبين، هو لسانك أيها الرسول، ولسان قومك. أمّا فى الآية الثانية فقوله تعالى: (قرآنا عربيا)

---

(١) (نزل بلغة - فصحى) - تقول كتب النحو: إن اسم التفضيل، مثل (الأكبر- الكبرى)- إذا تجرّد من (أل)- لا يُثنى ولا يجمع، ويبقى على صيغة المذكر. مثلا: نقول: (سعيد أكبر من سالم) - و(سهيلة أكبر من بُشرى) ولا نقول: (كبرى) من بشرى. وهذا.. صحيح.

- ولكن، أينطبق هذا على كلمة (فُصحى) عندما يُراد منها وصف اللغة؟ الجواب.. لا. لا ينطبق. لماذا؟ لأن كلمة (فصحى) وصفا للغة انتقلت من -الوصفية- إلى الاسمية. وعلةُ ذلك أنها أصبحت جزءا من اسم اللغة، وخاصةً باللغة، فدائما يقال: (العربية الفصحى) أو (لغة عربية فصحى) للتمييز لها عن اللهجات غير الفصيحة. ولهذا.. فلا توصف بها المرأة، فلا يقال: (امرأة فصحى)- وإنما يقال: (امرأة فصيحة) ولكنْ، يقال: المرأة الفصحى.

أتْبَعَهُ تعالى بقوله: (لعلكم تعقلون). فليس من المقبول أن يكون العقل مُتأتيا من نسبة القرآن إلى (العرب) فليس العرب أعقلَ من غيرهم من الأمم، لكى تكون نسبة القرآن إليهم قائدة إلى التعقل. ومعنى هذا (لو صَحّ)- أن ما فى القرآن من معانٍ تؤدى إلى إدراك الأشياء - معنوية، ومادية - بصورة أفضل، راجع إلى أنه منسوب إلى (العرب)!! وهذا.. لا يكون، ولا يصحّ.

- يبقى أن نقول: لو كانت هذه النسبة إلى العرب - لكان القرآن- حاشاهُ- مُنحازا إلى العرب - من ناحية - ولكان - من ناحية ثانية- دينا للعرب - وَحْدَهُمْ- كما أن التوراة هى دين لبنى إسرائيل - وحدهم- ولكن هذا مخالف لنصوص القرآن، فالقرآن يقول لرسول الإسلام- محمدٌ ابن[1] عبد الله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ- ٢٨]، ويقول:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء - ١٠٧].

- ثم.. مما يؤكد أن هذه النسبة هى نسبة إلى الفصاحة أن رسولنا الأفصح يقول: «... أنا أعربُ العربِ؛ وُلدت بين قريش واسترضعت فى بنى سعد ابن بكر. فأنّى يأتينى اللّحْنُ»[2]

- وقد يقال: (عربيا) منسوب إلى اللغة العربية - لا إلى العرب.. والجواب.. أن النسبة إلى - العربية - ليس (عربيّا)، وإنما هى (عَرَبانيّ).. فى حالة الرفع والجرّ، و (عربانيّا) فى حالة النصب. وهذه النسبة كالنسبة إلى (الإسكندرية) فإنّ النسبة لها هى (إسكندرانىّ) و (إسكندرانيا).

- طبعا يجوز أن يُنسب إلى اللغة العربية على (عَرْبيَوِيٌّ) - كما يجوز أن يُنسَبَ إلى الإسكندرية على (اسكنْدَرْيَوِيّ). ولكنّ هذه الصيغة اطّرحت، بسبب «ثقلها»، لتوالى أربعة حروف عِلّة، الياء جاءت ثلاث مَرّات، يفصل حرف - الواو- وهو حرف عِلة - بينها.

- وكما أن قوله تعالى: (لعلكم تعقلون) لا يصحّ أن يكون التعقل آتيا من النسبة

---

(١) (محمدٌ ابنُ عبدِ الله - صلى الله عليه وسلم) - إن الأليْقَ برسول الإسلام أن يُنَوَّنَ لفظُهُ، فنقول: (محمدا - محمدٍ- محمدٌ) حتى إذا جاء بعده كلمة (ابن) - لأنه بالتنوين، يكون إعراب (ابن) بعده - (بدلا) أمّا بعدم التنوين فيكون (ابن) صفة. والشىء الذى يوصف غير واضح بذاته، أما الذى يُبدَل منه فيكون واضحا بذاته، لأن البدل زيادة توضيح للمبدل منه وليس أساسيا فى توضيحه، لأن المبدل منه.. واضح بذاته. ولقد سميت (البدل) فى كتاب (الرؤى النحوية) - (الموضِّح) -والمبدِل منه - الموضَّح - جـ ٣/١٨٠.

(٢) الهيثمى - مَجْمع الزوائد - ٨/ ٢١٨.

إلى العـرب.. فقولُهُ تعـالى، فى الآية الثالثة: (غيرَ ذى عِوَج) – كذلك.. لا يصحّ أن يكون وَصْـفُ القـرآن بأنه (غيرَ ذى عوج) – راجعا إلى أنه منسـوب إلى العرب. إذْ العربُ فيهم اعوجاج (وفيهم اسـتقامة) كغيرهم من الأمم والأقوام. وإذن.. فالقـرآنُ تَنَزّهَ عن الاعوجاج.. لأنه فصيحٌ – مُبينٌ، بفصاحته، عن معانيه – المستقيمة العادلة التى تنزّهت عن الاعوجاج، بل هى الحقّ المبين.

– وهكـذا.. فى الحالات الثمانى الأخرى التى ورد فيها لفظ (عربيا) وصفا للقرآن (ولم نوردها هنا)، فهو عربى أى – فصيح مُبينٌ عن مقصوده. والله تعالى أعلم.

من فقه اللغة:

– وسؤال رابع: قد يُسأل: كيف تبيّنَ لك أن (عربيا) تعنى.. فصيحا، مُبينا؟

– الجـواب.. موجـود فـى معجم (لسـان العرب). فمـن معانى (عربى) – السـبعةُ الآتيةُ:–

١ – فصيح: (رجل مُعرِبٌ: فصيحٌ. وإن كان عَجَميَّ النسب). ألا ترى أن.. المُعرِبَ – هو الفصيـح، وإن لم يكن عربى النسـب. لأن المعرِبَ هو الفصيـح – عربيًا كان أو غيرَ عربى كان (رُوِىَ – كما يقول اللسـان – عن أبى بكر – رضى الله عنه – أنه قال: قريش هُمْ أوسط العرب، فى العرب، دارا، وأحسنهم جوارا، وأعربهم ألْسنةً).. أى – هى أفصح العرب. وقال رسـولُنا العظيم – صلى الله عليه وسـلم– «(الثيِّبُ تُعرِبُ عن نفسـها» أى– (تُفصِحُ). هكذا ورد فى اللسـان. ثم يقول اللسـان: (وإنما سُمِّىَ الإعراب.. إعرابا، لتوضيحه وتبيينه)، أقول: والإعرابُ هو – من النحو– الحركات علـى أواخر الكلمات، لأنهـا (= الحركات) فيها معنىً مضافٌ لمعنى صيغة الكلمة، كالمفعولية، والحالِيّة، والظرفية... إلخ.

٢ – تعليم الفصاحة:– (وفى حديث الحسـن (ابن عليّ) أنه قال له (البَتِّى): ما تقول فى رجل – رُعِفَ – فى الصلاة؟ فقال الحسـنُ: إنّ هذا – يُعَرِّبُ الناسَ) – أيْ– يُعَلّمُ الناس. أقول: سَـخِرَ منه الحسـنُ، لأنه يقال: (رَعُفَ)، على البناء للمعلوم، وليس (رُعِفَ) على البناء للمجهول. أقول: يُعرِّب – هنا– معناها (يعَلِّمُ) الفصاحة.

٣ – المـاءُ الصافـى: (العَـرِبُ، هـو المـاء الصافى. ونهـر عَـرِبُ: غَمْرٌ، وبئـر عَرِبة: كثيرة الماء).

٤- التجمُّعُ: (وعَروبةُ، والعَرُوبةُ: كلتاهما.. الجُمعة)، لأن الناس يجتمعون للصلاة فيها.
٥- (والإعراب.. النكاح. وقيل: التعريض به)- ومنه: المرأة العروب: المتحببة إلى زوجها.
٦- الفُحشُ: (الإعراب والتعريب: الفحش، وهو ما قَبُحَ من الكلام).
٧- والرجل العربى: والعربى هو المنسوب إلى العرب. أقول: وهى نسبة اضطرارية، لأن كلمة (العرب)، وهى اسم جنس - ليس لها مُفرد من جنسها، فجاء المفرد على صيغة النسبة. ولذا.. فهو ليس نسبةً على الحقيقة وإن جاء بصيغة النسبة، لأنه اسمُ مفردٍ.
- كما قالوا: أنصارى، من الأنصار. وهى ليست نسبة على الحقيقة - كذلك.
- أقول: إن كلَّ المعانى السابقة وردت فى معجم (لسان العرب) ويتضمّنُها القرآنُ. المعنى الأول = الفصاحة والإبانة - وَضّحناهُ، فى مكانه. أمّا المعانى السِّتّةُ اللاحقة، فالقرآن يتضمنها على النحو الآتى:
- فالمعنى الثانى: (يُعَلِّمُ)، والقرآن هو كتابٌ يُعَلّم الدين والأخلاق، ومبادئ التعامل والمعاملات، ويُعلِّمُ عن نظام الكون؛ بإشارات يحللها العقل البشرى، قرنا بعد قرن.
- والمعنى الثالثُ: وهو (الماء الصافى، والغزير). وهل القرآن الكريم غيرَ ذلك؟ لأن معانيَهُ صافيةٌ، لأنه حق وعدل، والخق والعدل.. صفاء معنويّ. وهل القرآن إلا نبع، تُستقى منه كل العلوم، بعضُها تُستقى كلها منه - كالعقيدة، والعبادات والمعاملات، وبعضها تُستقى منه إشاراتٍ دالّةً، فمن يتابعها، من المتخصصين فى مجالها يُهْدى إلى علم كثير.
- والمعنى الرابع - دلالتُهُ هو أن القرآن «مُعرِبٌ» لأنه يَحُضُّ على النكاح، لأهمية الجنس، ومن أجل الإحصان والعفاف.
- والمعنى الخامس (= التجمع)، والقرآن مُجمِّعُ الجماعات. أليس المسلمون، وهم الآن مليار ونَيِّف، كُلُّهُمْ جماعة واحدة، مجتمعة على العقيدة والعبادات، وإن تفرقوا، فيما وراء ذلك، ولكن، إلى جماعات أيضا.
- أمّا المعنى السادس: (الفحشُ) فدلالته فى القرآن هو مُحاربة القرآن للفحش. أى - إن هذا المعنى وارد فيه على معنى (السّلْب). بمعنى أن الكلمة فى اللغة، تأخذ أحيانا، وهى فى سياق، معنىً مضادًا لمعناها الأصلى، مثل كلمة (ممرضة) فأصل الكلمة أن الذى يمرِّض الشخص إنما هو الذى يجلب له المرض. ولكن، استعملت فى معنىً مضادٍّ، فى العصر الحاضر، فالممرضة هى التى تساعد فى شفاء المريض، أى - فى - سَلْبِ - المرض منه. وهذا السلب هو

أحد قوانين نمُوّ اللغة. وإذن كلمة الفحش هنا أخذت معنى السلب، بمعنى أن القرآن يدعو إلى سلب الفحش، من حياة الناس، أى – يدعو إلى الفضيلة، عن طريق الزواج.

– أمّا المعنى السابع.. فهو بمعناه الأصلى .. هو المقصود، عندما يَرِدُ فى القرآن، ومعناه هــو: (الفصيح). أما بالمعنى الثانى.. فــلا يتضمنه القرآن، لأن هذا المعنى الثانى.. لا يدلّ على الفصاحة، وإنما يدلّ على جنس العرب. وهو معنىً تطور مع الزمن.

– وســؤال خامس هو: من أين جاءت كلمــة (عَرَبٍ) – وكيف صار معنى (العربى) أو أحدُ معانيه: الفصيحَ؟

– الجوابُ.. هو أن من أنواع الاشــتقاق– الاشــتقاقَ بتقليب الحروف. مثلا.. (جَذَبَ) اشتُقّت منها كلمة (جَبَذَ) لتدلّ على شدّةٍ أكبرَ فى الجذْب. وكلمة (عَرَبَ) مشتقة من كلمة (عَبَرَ) عن طريق تقليب الحروف. و (عَبَرَ) تعنى الذى يمشى من جانب النهر (أو الأرض) إلى جانبه الآخر. والعرب كانوا – فى معظمهم – بُداةً، يسكنون البادية، فيتنقلون فيها، فيعْبُرونها من جانب، فى تنقلهم، إلى جانب آخر..

– وبمــا أن الباديــةَ.. باديةٌ، أيْ – ظاهرةٌ ومكشــوفةٌ، فالذى يَعْبُرُهــا.. بادٍ وظاهرٌ، ومكشوفٌ. فإذا تكلم سُمِّيَ كلامُهُ (عَبْرِيًا)، أى – باديا وظاهرا ومكشوفا، خاصةً أن قُطّانَ البادية لا يكتبون، فكلامهم مكشوف – من ناحية أخرى – لأنه مُصَوَّتٌ مسموع. (وسُمّيَ كلامهم باسمهم.. من باب (المجاز المرسل)، وعلاقته – التلازم– بين المتكلم وكلامه).

– ثم.. أفصح الرجل من الوادى: خرج منه، فظهر، وبَانَ وانكشف. وإذنْ.. الفصاحة هى – البيان، والظهور، والانكشــاف. وإذا خُصِّصتْ باللغة، كانت اللغة الفصيحة هى: المُبِينَةُ للمعانى، المُظْهِرَةُ لها– الكاشفة لها.

– وإذن.. هناك علاقة مشتركة بين الكلام العَبريّ، والكلام الفصيح، فكلاهما يُبِينُ عن المعانى (والمقاصد) ويُظهِرُها ويكشــفها. وإذنْ.. الكلامُ – العَبريّ– هو الكلام – الفصيح– – ولكنّ العربَ لم يرتاحوا – بالذوق – لكلمة (عَبَرَ) لطول الاســتعمال (وطول الاســتعمال يحوّل الكلمة – أحيانا– إلى كلمة مبتذلة– أما ترانا، لطول الاســتعمال أصبحنا، إذا أردنا أن نَصِــفَ وَجْهَ فتاة – جميلا.. لا نقول: (وجهُهَا كالبدر) وإنما نقول: (مُحيّاها كالبدر)؟ ما ذاك إلا لطول اســتعمال كلمة الوجْهِ، وكثرة اســتعماله جعلت كلمة الوجه غير شاعرية) – فاشــتقوا، لهذا ..(من عَبَرَ) اشــتقاقا جديدا أقرب إلى الذوق – بسبب الجِدّةِ – فقالوا: (عَرَبَ، وعَرَبٌ، وعَرَبىّ– وكلامٌ عربيّ) ثم.. ثَبَتَ الاشتقاق، ومضى مع التاريخ.

– وواضح أنّ (عَرَبَ) هى من تقاليب (عَبَرَ– وكلام عَبْرِيّ)– ولأن الكلام العَبْرىّ هو الكلام الفصيح، فالكلام العربيّ هو الكلام الفصيح– وإنّ العربىّ– إطلاقا هو: الفصيح– كما أن العَبْرِىّ – إطلاقا– هو: الفصيح. فإذا نُسب الكلام إلى كلمة (عَرَب) كانت النسبة تعنى.. أنه كلام فصيح. (وكلمة – العَبرىّ– بفتح العين– يمكن أن تُكْسَر عينُها للتناسب مع الياء المشدّدة وطلبا للخفّة).

– وإذن.. العرب هم عاربو البادية– الفصحاء– كما أن– العَبَرَ– هم عابروا البادية الفصحاء وعاربو البادية، و عابروها .. هم الذين يتجولون فيها، و يجتازونها من طرف إلى طرف آخر .. والله تعالى أعلم.

– وسؤالٌ سادس فى فقه اللغة:

– معروف أن الاشتقاقات المختلفة ذات – الأصل– اللغوى الواحد.. ترجع كلها إلى معنىً واحدٍ – غالبا–، هو المعنى الأصلى. وهذا.. كثير فى العربية الفصحى، وقليل فى اللغات الأخرى. (وهذا.. ليس من باب تَعَصُّب المرْءِ للغته، أو لما يخصّه، وإنما هو أمرٌ يدل عليه علم اللغة، وفقه اللغة)[1].

– فهل هذه المعانى السبعة لكلمة (عَرَبَ) أى – فَصُحَ. ترجع إلى هذا المعنى الأصليّ؟

الجواب .. نعم .

– فالتعليم.. يؤدى إلى الفصاحة (فى العربية، وفى سواها من اللغات)– أما ترى أن المتعلمين– بشكل عامّ– فى كلّ الدنيا هم أكثر إبانةً (=إفصاحا) عن أفكارهم من غير المتعلمين؟

– والتجمّع.. فيه احتكاك بين طاقات البشر المتجمعين. وهذا الاحتكاك يُفيد منه هذا الشخص كلمة، وهذا جملة، وذاك معنى، وذاك فكرة. ثم.. التجمع يُوَلّد الرغبة فى المشاركة فى الحديث، وأنْ يعرض كلّ شخص ما عنده– خلافا – للمتوحّد– الذى لا يجد – غالبا– رغبة، فى الكلام. وهذا.. كله يقود إلى ازدياد ثقافة المرْء، وإلى صَقْل لغته، فيصبح أكثرَ إبانةً، و أكثرَ فصاحةً.

– والنكاح.. عند بنى الإنسان حافز قويّ لتوليد عبارات المجاملة والغزل، لأن الإنسان لا تطيب منه العِشرة، ولا تطيب له العشرة إلا بتغليف العلاقة الجنسية بألْفاظ المجاملة والغزل، لأن الإنسان ينطوى على مشاعر جمالية، ولذلك.. لا يجد المتعة الكافية فى

(١) الهيثمى– مَجْمع الزوائد – ٨/ ٢١٨.

الشـريك الآخـر إلاّ إذا غُذّيَ هذا الجانب الجمالى- وكلّ ذلك يَحُـثّ على توليد الألفاظ، لإنشـاء صياغات جديدة، تسـرُّ الطرف الآخر. وإذن.. يزداد الإنسـان فصاحةً، بتدريب الذات على تغليف علاقته بعبارات جميلة.

– والعَرِبُ.. هو الماء الصافى. والماء الصافى يعنى الفصاحة من ناحيتين: الأولى- أن الماء الصافى.. يُرى ما بداخله – بوضوح- وهذا.. إبانة، والفصاحة هى القدرة على إبانة ما فى النفس، عن طريق الألفاظ. والناحية الثانية- أن الماء الصافى هو ماء صِحّيّ – غالبا- والماء الصحّيّ، من أسـباب دوام الصحة للإنسـان، ما دام حيّا، وصاحـب الصحة الجيدة هو أقـدرُ على متابعة التعلم، مـن الكتب، أو من تجارب الحياة، ومتابعة التعلم يُنمّى مدارك الإنسـان، وتنميَة مدارك الإنسـان مِعْوانٌ على الفصاحة، لأن المدارك الواسـعة تحتاج إلى مفردات كثيرة للتعبير عنها، مما يحفز مثل هذا الإنسـان إلى أن يزيد ثروته اللغوية بحفظ مفـردات جديدة أو بتوليد مفردات جديدة، أو بالوسـيلتين – معـا . ومن ازدادت ثروته اللغوية فقد أصبح قادرا على التعبير عن مداركه الواسعة، فاستوى.. فصيحا.

– والفُحْش: هو كشـف لما يحاول الناس أن يسـتروه من القول أو الفعل. فإذا تكلم المرْءُ بالفحش، فقد أبان عن مستور، أى – أفصح عنه. وليست الفصاحة إلا القدرة على التعبير عن المستور من المعانى والأفكار.

– والعربى.. تلتقى مع الفصاحة، من حيثُ أن الأصل فى كلمة (العرب) الذين يَعْرُبون البادية (أى- يعبرونها) وعبور البادية هو كشف لما فيها. والفصاحة هى الكشف والإبانة، فالعربى هو الكاشـف المُبين عن المعانى، والكاشـف المبين عن المعانى هو الفصيح. أمَا قال (لسـانُ العـرب): والعربى هو الفصيح، وإن كان من أصل أعجمـى؟ أى – وإن كان غير عربى؟! ثم .. العربى هو ظاهر بذاته، لأنه يتقلب فى صحراء مكشوفة.

– ثـم.. مـن المعروف أن كثيرا مـن الكلمات تتطوّر معانيها. ومنهـا ما يحتفظ بالمعنى الأوّل، وبالمعانـى الحادثة، وبعضهـا يموت معناها الأوّل، أو يخفـت، ويبقى معناها أو معانيها اللاحقة. وكلمة (عربى) لم يمت معناها الأصلى، وهو: الفصيح. وإنما خَفَتَ، أمام معناها الذى اكتسبه، فيما بعد. فإذا أُطلِقت – الآن- ومنذُ عهد الجاهلية كلمة – عربى- (خارجَ القرآن) انصرف الذهن – فورا- إلى المعنى المكتسـب، وهو الجنس العربى، لا إلى المعنى الأصلى، وهو.. الفصاحة.

– ولـن تَجِـدَ مثلَ هذا التلاقـى بين جميع المعانى التى تتولّد من اشـتقاقات من جذر لغويٍّ واحدٍ– على تمامه– فى غير العربية الفصحى – لغة القرآن– التى ألهمها الله تعالى العرب– إلهاما، لتكون خالدة، فتحمل القرآن الخالد.

والله تعالى أعلم، وهو المعلِّم والأكرم.

obeikandl.com

خاتمـــة الكتاب

– لقد جعلنا هذا الكتاب مقصورا على «فقه اللّغة» تحت عنوان (العربيةُ الفُصحى) – مُرونتُها وعقلانِيّتُها وأسبابُ خلودِها. فحللّنا فيه ألفاظا وأقوالا فعّلنا خلالها قوانين نُموّ اللّغة وتطوّرها، ليكون ذلك مثالا لمن يريد أن ينظر فى الألفاظ. فَيَقْبَلَ ما يتماشى–من اشتقاقات جديدة، ومن معانٍ جديدة – مع قوانين اللّغة، ويُخطِّئ ما يَجدُهُ لا يتماشى مع هذه القوانين.

وقد كانت بعض الرُّدود تصويبا لآراءٍ فى اللّغة أُطلِقت، دون تَمعُّنٍ. ومن تصويب ذلك.. قولُنا: إن اللّغة التى يحتاجها توضيحُ أصول الدين.. قليلة، كالعقيدة والعبادة، مما يجعل اللّغة المؤلفة من عَشَرَةِ آلاف كلمة أو أقل تفى بذلك. وأن اللُّغات تتفاوت فى ثرائِها بالألفاظ وقدرتها على توضيح المعانى. وأن اللّغة العربيّة أعظم لغة لقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣]. فالإبانة وُصِفَ بها هذا اللّسان العربيّ وَحْدَهُ. نَعَمْ، – أعظمُ لغة– لقوله تعالى السّابق الذى هو جُمّاعٌ لأسباب أُخرى كثيرة تتصف بهـــا اللّغة العربيّة، وتتفـــوّق فيها على غيرها.. لا مجالَ لذكرها هنـــا، وقد ذكرنا بعضها خلال هذا الكتاب.

– ولُبُّ دعوْانا: هى أنْ رَبِّ زدنى علما، واجعل ما نقولُهُ وما نفعله فى ميزان حسناتنا يـــوم القيامة، واغفر لنا ســـيِّئاتنا، وتُبْ علينا، إنّك أنـــت التّواب الرّحيم. وآخرُ دعوانا أنْ الحمد للهِ ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين.

انتهى الكتاب – والحمدُ والفضلُ بما جادَ بهِ القلمُ – لله تعالى الذى عَلّم بالقلم.

مصادر الكتاب ـ ومراجعه

– هـذا الكتاب [العربيـةُ الفصحى: مرونتُها، وعقلانيتُها، وأسـبابُ خلودها]– لم يتبع منهج التأليف التقليدى – الذى يُعِدُّ – جُذاذات – من عشـرات الكتب، وأحيانا – مـن مئاتها – ثم يصنف هـذه الجذاذات، فى موضوعات فرعيـة، يصنع منها كتابا – لا جديدَ فيه.

أو الجديـد فيه .. آراء جزئية وقعت هنـا وهناك، لا تخرجه عن صورته التقليدية فى التأليف.

– بـل هـذا الكتـاب قام علـى – التجديد – والإتيـان بما يفارق – كثـيرا– ما قاله الآخرون: قُدامى، ومعاصرين.

– كثيرا.

– ولهـذا .. فمراجعـة قليلة، لأنـه لا يعتمد على النقل من الكتـب. وهذا .. اقتضى التنويه.

المصادر:

– القرآن الكريم.

– الحديث النبوى الشريف – الصحيح.

المراجع

- البخارى – محمد ابن إسماعيل– صحح
- البورينى: عبد الرحمن أحمد– اللغة العربية.. أصل اللغات كلها – عمان/ دار الحسن – ١٩٩٨.
- الجرجانى: عبد القاهر ابن عبد الرحمن– دلائل الإعجاز – القاهرة/ مكتبة الخانجى– ١٣٧٥/١٩٥٢.
- الجمحى: محمد ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – المقدمة.
- جواد على– المفصل فى تاريخ العرب، قبل الإسلام.
- بيروت/ دار العلم للملايين – بغداد/ دار النهضة – ١٩٦٨.
- حجازى: محمود فهمى– علم اللغة العربية – الكويت/ وكالة المطبوعات – ١٩٧٧.
- ابـن خلـدون: عبد الرحمن ابن محمد – المقدمـة/ القاهرة – ١٩٦٢– تحقيق : على عبد الواحد.
- سـعد زغلول عبـد الحميد – فى تاريخ العرب، قبل الإسـلام/ بيـروت/ دار النهضة العربية – ١٩٧٦.
- الصالح: صبحى– دراسات فى فقه اللغة/ دمشق– مطبعة جامعة دمشق – ١٩٦٠.
- الطبرى: محمد ابن جرير – تاريخ الرسل والملوك/ القاهرة – دار المعارف – ١٩٦٦.
- عرابى: رجاء عبد الحميد – سفر التاريخ اليهودى.
- عمايـرة: خليـل أحمد– فى نحـو اللغة وتراكيبهـا – منهج وتطبيـق – جُدّة/ عالم المعرفة– ١٩٨٤.
- عودة أبو عودة– التطور الدلالى بين لغة الشعر الجاهلى – ولغة القرآن الكريم.
- القيسى: عودة الله منيع– رُؤىً نحوية وصرفية تجديدية – ٤حـ/عَمان/ دار البداية – ٢٠١١م.
- منابع – منابع الشـعر ومكانه الشـاعر/ عَمان/ عمال المطابع التجارية– النداء الحق– جـ ١– عَمان/ دار البداية – ٢٠١٠.

obeikandl.com

- العصمتان «مخطوط».
- ابـن هشـام : عبد الملك ابن محمد- السـيرة النبوية – (٤ جـ)- الهيثمى – على ابن أبى بكر- مجمع الزوائد – القاهرة/ دار الرّيان للتراث- ١٤٠٧.

المجلات:

١ – الشلبى: إبراهيم مهدى- مجلة (العربى): أدركوا اللغة العربية – العدد (٦٤٥) سنة ٢٠١٢م.

٢ – القيسى: عودة الله منيع- هدى الإسلام – ٥، ٦، ٧ – لسنة – ٢٠٥.

obeikandl.com

الخطوط العريضة للسيرة الذاتية

أولا: المؤهلات العلمية :

الاسم: د. عودة الله منيع سالم القيسى/ ناقد ولغوى وكاتب موسوعىّ ومتخصص فى إعجاز القرآن اللغوى.

مكان الولادة وتاريخها: الطيبة / الكرك ١٩٣٨/٩/١٧م.

المؤهلات:

(أ) دكتوراه فى اللغة العربية / تخصص نقد(عن الإعجاز اللغوى فى القرآن . ١٩٨٨م.)

(ب) ماجستير نقد حديث/ جامعة القاهرة ١٩٨٠م.

(ت) دبلوم فى سنتين فى البحث من معهد البحوث والدراسات العربية/ القاهرة ١٩٧٦م.

(ث) بكالوريوس لغة عربية/ جامعة دمشق ١٩٦٤م.

- درست الى الصف السادس فى بلدتى ثم درست الصف السابع فى بلدة العراق (فى محافظة الكرك) وهى تبعد حوالى عشر كيلو مترات عن بلدتنا وباتجاه الشمال الشرقى. ثم درست الثامن والتاسع فى مدينة المزار، ثم درست العاشر والحادىَ عشرَ فى مدينة الكرك وكانت دفعتى آخر (مترك) عام ١٩٥٩-١٩٦٠م.
- وقد حصلت على المرتبة الثانية فى المترك فى محافظة الكرك والطفيلة. وقد أوفدتنى وزارة التربية والتعليم (وزارة المعارف آن ذاك) فى بعثة لدراسة اللغة العربية، فى دمشق وتخرجت منها عام ١٩٦٤-١٩٦٥م.
- ولكنّ نظام التدريس فى الجامعة - آن ذالك- لم يكن يقوم على وَعْى تربوى يتماشى وعدالة تقويم الطالب، لقد كان الأستاذ يجعل الامتحان - غالباً - يقوم على سؤال واحد مما يفقد الامتحان صفة الشمول والإحاطة بسائر المهارات.

ثانيا: الخبرات الوظيفية

(أ) معلم مرحلة ثانوية من ١٩٦٤-١٩٦٨م.

(ب) مدير مدرسة ثانوية من ١٩٦٨-١٩٩٦م.

(ت) موجّه لغة عربية من ١٩٧٠-١٩٧١م.

(ث) مساعد فني في مديرية تربية الطفيلة من ١٩٧٠-١٩٧٣م.

(جـ) عضو إشراف تربوي في مركز الوزارة ١٩٧٥م.

(حـ) مدير معهد معلمين في عمّان من ١٩٧٨-١٩٧٩م.

(خـ) مساعد مدير شؤون الموظفين في وزارة التربية والتعليم ١٩٧٩م.

(د) موجه مسؤول عن التعليم الخاص في الإمارات (ماعدا أبو ظبي) من ١٩٧٩-١٩٨٣م.

(ذ) مساعد أكاديمي في كليات المجتمع ١٩٨٣-١٩٨٥م.

(ر)مدير كليات المجتمع بالوكالة من ١٩٨٥-١٩٨٧م.

(ز) مدير توثيق ومطبوعات تربوية في مركز الوزارة من ١٩٨٦-١٩٨٧م.

(س) مدير التأهيل والتدريب والإشراف التربوي (توجيه تربوي) في مركز الوزارة من ١٩٨٩-١٩٩٠م.

(ش) عرض على منصب وزير أوقاف - سنة- ١٩٩٤م ولا كنني اعتذرت. نظرا لأن المهام المطلوبة - أن ذلك- لا توافق موقفي في الحياة.

(ص) عميد كلية مجتمع غرناطة/ اربد/ ١٩٩٠م.

(ض) عضو هيئة تدريس في كلية تأهيل المعلمين العالية (كلية جامعية) من ١٩٨٨-١٩٩٠م.

(ط) عضو هيئة تدريس في جامعة عمان الأهلية من ١٩٩٠-٢٠٠٠م وقد درّستُ الموضوعات التالية: الصرف، فقه اللغة، الأدب القديم، النقد القديم. النقد الحديث، التفسير ومدارسه. ورئيس قسم اللغة العربية- فيها.

(ظ) الإشراف على رسالة المعلم الأردنية ١٩٨٥م.

(ع) رئيس تحرير مجلة (الكاتب الأردني)٢٠٠٦م.

(غ) مدير تحرير مجلة (الضاد) ٢٠٠٥-٢٠٠٧م.

★★ والآن متفرغ للتأليف

ثالثاً: عضوية اللجان والاتحادات:

١ - عضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين منذ ١٩٨٧م.

٢ – عضو تطوير مناهج اللغة العربية منذ– ١٩٩٠ حتى ١٩٩٨م.
٣ – عضو فريق الإشراف على كتب اللغة العربية منذ ١٩٩٢ حتى ١٩٩٨م.
٤ – عضو جمعية الدراسات البحوث الإسلامية منذ ١٩٨٨م.
٥ – عضو المعهد العالمى للفكر الإسلامى منذ ١٩٩٥م.
٦ – عضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية منذ ١٩٩٢م.
٧ – خبير مناهج اللغة العربية وكتبها للمدارس.
٨ – عضو جمعية (اللغة الفصيحة – حفاظاً وتنمية).

رابعا: الأحاديث الإذاعية والتلفازية

١ – أحاديث فى تلفاز دبى ١٩٨٣م.
٢ – أحاديث دينية فى إذاعة الأردن ١٩٨٤م.
٣ – أحاديث فى إعجاز القرآن فى إذاعة الأردن ١٩٨٤م.
٤ – أحاديث فى إعجاز القرآن فى التلفاز الأردنى ٢٠٠٢م.
٥ – مقابلات عن السيرة النبوية ٢٠٠٦م.
٦ – مقابلات عن فقه اللغة العربية ٢٠٠٦م.
٧ – مقابلات متعددة، فى الإذاعة الأردنية، فى برنامج فكر إسلامىّ.

خامسا: المؤلفاتُ والخبراتُ العلمية:

ألفتُ الكتب التالية:
القسم الأولُ: كتب – ألفتها– بالاشتراك: وهى الآتية:
١ – كتاب اللغة العربية / الصف الرابع (سلطنة عمان) ١٩٧٤م.
٢ – كتاب اللغة العربية / الصف الخامس (سلطنة عمان) ١٩٧٤م.
٣ – كتاب اللغة العربية/ الصف الحاديَ عَشَر/ الأردن. ١٩٧٤م.
٤ – مذكرة فى النقد والبلاغ / الصف الثامن (سلطنة عمان) ١٩٧٥م.
٥ – كتاب اللغة العربية / الصف الثامن(سلطنة عمان) ١٩٧٥م.
٦ – التطبيق اللغوى (لطلبة الصف السابع فى الإمارات) ١٩٨٣م.
٧ – دليل المعلم (التطبيق اللغوى) للأول الإعدادى) ١٩٨٣م.

٨ – التطبيق اللغوى / الصف السابع/ الأردن، ١٩٨٤م.
٩ – تعريب وتوحيد المصطلحات العلمية والتقنية(الاتحاد العربى للتعليم التقنى) بالاشتراك ١٩٨٤م.
١٠ – دليل تدريب ومتابعة معلمى اللغة العربية (الرابع – السادس) ١٩٨٦م الأردن
١١ – مذكرة فى النقد والبلاغة (الصف الثانىَ عَشَرَ / ١٩٨٩م) الأردن.
١٢ – منهاج اللغة العربية وخطوطه العريضة/ ١٩٩٠م الأردن.
١٣ – اللغة العربية / المستوى التأسيسى الأول (الأوقاف ١٩٩٠م) الأردن.
١٤ – اللغة العربية لطلبة المعهد الشرعى/ ١٩٩٠م / الأردن.

القسم الثاني: كتب ألفتها وحدى، وهى:

١ – يوم الكرة الأرضية (مجموعة قصصية) ١٩٩٤م.
٢ – سرُّ الإعجاز (فى تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوىّ واحد فى القرآن) ١٩٩٥م.
٣ – مقالات فى النقد الأدبى التطبيقى ١٩٩٨م.
٤ – دليل الطالب (شرح كتاب الثقافة الأدبية واللغوية) ٢٠٠٠م/ الأردن
٥ – الإعجاز اللغوى فى قصص نوح فى القرآن ٢٠٠٠م.
٦ – منابع الشعر ومكانة الشاعر ٢٠٠٢م (نقد أدبى)
٧ – الإعجاز اللغوى لآيات الصيام فى القرآن ٢٠٠٣م.
٨ – رائية ابن أبى ربيعة فى حبيبته (نُعْم) تحليل وتعليل ونقد ٢٠٠٣م – (نقد أدبى)
٩ – نماذج الشخصيات المكررة فى روايات نجيب محفوظ ٢٠٠٣م – (نقد روايات).
١٠ – تكنيك الشخصيات الرئيسية والثانوية فى روايات محفوظ ٢٠٠٦م – (نقد روايات).
١١ – المثقـاف فى النقد الأدبـى – تحليل وتعليل وتدليل (شـعراء مكتب الأردن لرابطة الأدب الإسلامى ٢٠٠٧م – (نقد أدبى).
١٢ – العربية الفصحى– مرونتها وعقلانيتها، وأسباب خلودها– ٢٠٠٧م – (فقه لغة)
١٣ – النداء الحق. ردود على كُتاب وكتب (جزءان – فكر إسلامى).
١٤ – كرامات شـفيفة ومواقف منيفة فى حياة رسـولنا – صلى الله عليه وسلم – ٢٠٠٧م (من سيرة الرسول).
١٥ – وُجهاتُ نظر فى الفكر السياسىّ والإدارىّ ٢٠٠٤ – (فكر سياسىّ).

١٦ – وانهار السد (مجموعة قصصية – ٢٠٠٦م).
١٧ – من الإعجاز اللغوى فى القرآن (الكلمات المتقاربة المعنى المتباعدة المبنى) ٢٠١٠م.
١٨ – بعض ما خطأه اللغويون وهو صواب – وبعض ما اعتبروه صوابا وهو خطأ – ٢٠١٣م.
١٩ – تحاور اللغة والحياة (فى فلسفة اللغة) – ٢٠١٣م.
٢٠ – رُؤَى – نحوية وصرفية – تجديدية– ٢٠١١م.
٢١ – شؤون تربوية.
٢٢ – الزينة والحجاب – فى الأحاديث والكتاب. –٢٠١٤م.
٢٣ – كتبت أكثر من عشـرين بحثاً فى المجلات التالية(أفكار الأردنية، البلقاء الأردنية، هدى الإسـلام الأردنية، المواقف الأردنية، المعرفة السورية، اللسان العربى المغربية، الدوحة القطرية، منار الإسلام الإماراتية، الآفاق الأردنية، رسالة المعلم الأردنية).
٢٤ – أهؤلاء علماء – أم هم نَقَلَةُ معلومات؟ (فكر إسلامى) – ٢٠١٤م
٢٥ – فى فقه العربية (معالجات وردود) – (فقه لغة) – ٢٠١٤م
٢٦ – رأس نقد الشعر – نقد (للفنّ) فى الشعر– (نقد أدبى) – ٢٠١٤م
٢٧ – رؤية جديدة للأحاديث المضطربة (نقد لبعض ما نسب للرسول من حديث)– ٢٠١٤م.
٢٨ – نجيب محفوظ– نماذج من الحضارة الغربية فى روايات (نقد روائى)–٢٠١٤م.
٢٩ – خبر تخضيب رسول الله بالدم – خبر مكذوب – ٢٠١٤م.
٣٠ – رسولنا الكريم لا ينطق عن الهوى – نقد لرأى المهندس عدنان الرفاعى، عن الحديث الشريف – ٢٠١٤م.
٣١ – حديث (لا وصية لوارث إلا أن يشاء الورثة) – حديث مكذوب – ٢٠١٤م.
٣٢ – الحكومة الرشيدة – والحكومة الفاشلة – ٢٠١٤م.
٣٣ – كتب أكثر من خمسمائة مقالة فى الصحف الأردنية.

المؤلفات المخطوطة:

١ – (العصمتان) عصمة الله تعالى الأعظم لرسـوله– صلى الله عليه وسـلم– الأكرم من أن يؤذيـهُ أحـدْ – أذى ماديا أو معنويا – فيه إهانة وإذلال مكون من عَشَـرَةِ أجزاء فى السيرة النبوية).
٢ – ليس بإنذار من السماء – بل شعاعُ هداية من السماء – (فكر إسلامى)

٣ – لمحات من الإعجاز اللغوى فى سورة البقرة.
٤ – المؤتلف – المختلف (المعجز) قبسات من آى القرآن الكريم.
٥ – التفرد فى الحكم.. سِمَةُ العالم الثالث – (فكر سياسى).
٦ – يقرأون.. ويُصَدقون– (فى مناقشة الأحاديث الضعيفة)

obeikandl.com

الفهرس

الموضـــوع الصفحـــة

الإهداء.....٣

كلمة نزهة.....٥

كلمة من الأستاذ جورج حداد/ رسالة د. القيسى/ النسبة إلى حياة

المقدمة.....٩

تمهيد.. فرضية الشعوب السامية واللُغات السامية... فرضية خُرافية لا أصل لها.....١٩

قد يستغرب المتلقّى هذا العنوان/ كيف تكشّفت هذه الحقيقة ومتى/ التوراة ليست مصدرا موثوقا لأنه غير موثق/ المراجع التى أكدت عدم وجود أصل «سامى» سلبيا هى القرآن الكريم، فى القرآن لم يرد ما يشير إلا إلى ولد واحد لنوح (عليه السلام) أغرقه الموج./ الحديث لم يرد فيه ولا حديث «صحيح» عن أن لنوح أبناءا/ التاريخ القديم اليمنى والعراقى واليونانى لم يشر إلى أمة سامية/ النُقوش لكل هذه البقاع لم يذكر شىء اسمه (أمة سامية)/ كاتب يعتبر السامية بدعة لخدمة اليهود ولكن من منظوره السياسى الدعائى/ اللغات القديمة فى الجزيرة والعراق وبلاد الشام كلها لغات عربية وليس من لغات سامية/ التّشابه بين لُغات المنطقة ليس عليه من دليل واحد على أنها ترجع إلى أصل واحد. وإنما هو تشابه.. يرجع إلى تشابه جغرافى/ مُصطلح الشُعوب الساميّة واللغات الساميّة فرضية وُضعت عام ١٧٨١م/ من نحن إذن؟ نحن عرب فى العرب البائدة (فجاءت منها العرب العاربة) النتيجة.. السامية خرافة لا أصل لها.

القسم الأول - كيف يتعلم الإنسان اللّغة؟

الموضوع الأول السكاكينى وتصوّره الساذج لمراحل تطور اللّغة العربيّة:.....٣٥

العربيّة مرت بثلاث مراحل/ النُصوص لا تُسعف على هذا التّصوّر/ المراحل فى حياة الإنسان مُتداخلة/ نظريات يُكذّب بعضها بعضا/ لغة آدم هى العربيّة/ لا يتقدم المفعول على الفعل إلا نادرا المرحلة الأولى.. وَهْمُ الترتيب مع الأسماء المقصورة لا يزال مرعيا/

الترتيـب المُلزم فى الأسماء المقصورة يدل علـى أهمية الحركات/ اللّغة العربيّة متفوقة على غيرها/ التقديم والتأخير حيوى فى اللّغة من أجل المعنى/ لا تسـتطيع الإنجليزيّة أن تعبر كما تعبر العربيّة.

الموضوع الثانى

نظريـة اللّغـة بين عبـد القاهـر الجرجانىّ، وتشومسـكى قـراءة لكتاب فى نحـو اللغة وتراكيبهـا للدكتور خليـل عمايـرة ٤١

الفطريّة والشموليّة.. ترتّب عليها فرضية تقوم على جانبين هما: الأداء – والكِفاية وأفَضّلُ بَدَلَ الكفاية (القدرة – أو المَلكة/ القواعد والقوانين.. كامِنان فى الذّهن/ البِنيةُ العميقة، والبنية السطحيّة.. مُرتبطتان بنظرية تشو/ تفسير معنى فطريّة اللّغة/ تشو.. لم يأتِ بشـيء جديد/ أمر (قوانين اللّغة) سـبقَ ابنُ خلدون بها تشو/ القرآن الكريم سبق بذلك.. ابن خلدون، وتشو/ الرسول – صلى الله عليه وسلم – بَيّن للناس معنى الآيـة القرآنيـة/ خلايا الجِسـم تُوصل ما تُحَصّلُ من اللّغـة إلى الدّماغ. وكل نوع من الخلايا يقوم بثلاثة أعمال/ اللّغة.. تُكتسب بوجود خلايا فى الدّماغ لاستقبال اللّغة، والاحتفاظ بها/ الفطريّة والشموليّة.. لا تختلفان عن الكفاية والأداء/ الألفاظ.. لا يقع فيها ترتيب إلا بسبب المعانى/ المرْءُ.. لا يستقبل ألفاظا دون معانٍ/ المعانى والألفاظ.. لا تستقرّ فى الدّماغ، لولا أن لها أماكن خاصةً فى الدّماغ/ الجرجانيّ سابق لتشو فى هـذه النظريّة/ هناك فرق بين حـظّ العقل، وحظّ النفس، فى الأدب، تبعا لنوع الفنّ الأدبى، شـعرا كان أم قصة أم رواية/ نُمثّل على لغة الشـعر ببيتين للأخطل/ الفرق بـين البِنية العميقة، والبِنية الظّاهرة/ الأداء، يَعُدّهُ تشـو الوجه الظاهر المنطوق. وقد تحـدّث عنه الجرجانيّ على أنه مما تضبطه معانى النّحو/ إنَّ صِحة النُّظم وفسـاده الذى رأى الجرجانى أن معانى النحو تضبطه هو ما عَبَّرَ عنه تشـو بـ (الأداء/ مِثال علـى صِحة التعبير، أى اتفاق التّعبير مع صِحـة التركيب (معانى النحو)، بأبيات للشـاعر البُحترى وتحليلها/ تشـو يرى أن التغيير فى ترتيب ألفاظ الجُملة لا يضير المعنى، وهذا غير دقيق حسَـب عبقريّة العربيّة/ مثال من آية القِصاص/ كل ما سـبق يلخص فى نِقاط ثمان، وردت فى الكتاب.

الموضوع الثالث

(فى نحو اللّغة وتراكيبها) كتبه د. خليل أحمد عمايرة قراءة لكتاب (فى نحو اللغة وتراكيبها) ومُناقشة آراء الكاتب ـ عمايرة.....٥٣

هل الترتيب بين النعت والمنعوت.. يؤدى إلى بعض الغموض/ تفنيد ذلك بثلاثة أدلّة/ هل صحيح أن اللّهجات السبع التى جمعت منها العربيّة بينها فروق كبيرة، تستدعى الشاعر، إذا نظم، أن ينظم باللّغة الأدبية المشتركة؟ كيف تكونت هذه اللّغة الأدبيّة المشتركة؟/ اللّغة العربيّة جُمعت من سبع قبائل هى التى نزل وفيه ألفاظ تماثل ألفاظ القرآن الكريم. وهذا عين الصواب، لأنها جاءت لغة مُؤتلفة/ اللّغة.. لم تكتمل فى مرحلتين، بل فى مرحلة واحدة/ الخطأ النحوى فى الشعر.. كان من باب تغليب الموسيقى، أو التّظَرُّف/ ليس صحيحا أن الجرجانيّ أعاد النّظر فى النّحو، بل جاء بمُصطلحات قليلة من نفس مصطلحات النحو تُوافق منحاهُ البلاغى النّقدى، ولم يُغيّر بها شيئا من مُصطلحات النّحو/ ما قاله الكاتب.. نقيض منهج الجرجانى/ الجرجانى استخدم مُصطلحات النحو، للتعليل البلاغى، ليس أكثر/ لا تكون البلاغة – دائما – فى الترتيب المعقّد للجمل، بل تكون كثيرا فى الترتيب البسيط/ مِثال من القرآن على جمال التقديم والتأخير، عندما يقع موقعه/ اللُّغات التى تعتمد على النّبر.. لُغات مُتحوّلة لا تستقرّ على حال، لأن النبْر (اللّهجة، أو منحى الصوت) متغيّر/ الإنجليزى.. يلجأ إلى التنغيم، لأن الإنجليزية نمطية جامدة التركيب/ التنغيم فى الإنجليزيّة أو الفرنسيّة) جعل شرخا بين المنطوق وبين المكتوب/ تنوّع التّعبير.. أغنى وأدقّ من التنوّع عن طريق التنغيم/ الجملة القرآنيّة (وأسّروا النّجوى الذين ظلموا) تختلف عن جملة (أكلونى البراغيث)/ جملة (أكلونى البراغيث) – صحيحة نحويا – لأنها تعبير بلاغى وليس بتعبير عادى/ قول الأعرابى، لا يختلف عن قول ابنة طريف، فى رثاء أخيها/ ثلاثة إعرابات محتملة لجملة (أكلونى البراغيث/ ثم.. يذكر الكاتب سبع استعمالات لغوية، لا نراها صحيحة، ونبين الصواب فيها

القسمُ الثانى اللغة العربيّةُ الفصحى لغةٌ إلهاميةٌ

الموضوع الأول اللغة العربية إلهام أم مواضعة واصطلاح؟ ٦٨

لباحث يجزم أنها إلْهام/ الآية تدل على أن الله تعالى أنساهم لغتهم السابقة، وألهمهم

الفُصحى/ الإنسان قد يفقد ذاكرته. فينسى كل ما كان يعرف، أثناء الصرع/ قضت مشيئة الله تعالى أن يكون العرب محاربين أشدّاء لكى يكونوا أهلا لحمل الإسلام/ الصحابة أفضل جيل، ليكونوا أفضل جيل لتطبيق الإسلام/ كبار الشعراء فى الجاهلية من البادية وليسوا من الحواضر. آنذاك/ القرآن ليس شعرا، ولا سحرا عند الوليد ابن المُغيرة ومع ذلك.. دعا المُغيرة جماعته أن يُشيعوا أنه سِحر/ البيئات البدوية فقيرة اللّغة، ولكنّ بادية العرب كانت غنية باللّغة. من أجل أن يكون القرآن مفهوما/ مع أن القرآن يعلو الشعر بثلاث درجات.. غيرَ أن وجود شِعر غنى ضرورى لفهم القرآن/ لو كان الفنّ الرّوائى ضروريا لِفَهْم القرآن لجعل الله تعالى عرب الجزيرة قادرين على تأليف الرواية.

الموضوع الثانى

أقوال اللغويين العرب القدامى فى العربية وأنها إلهامية وفرية اللغويين الغربيين فى أنها سامية..... ٧٦

الدكتور صبحى يذكر رأيين للقدامى بأن اللّغة مُواضعة. ويرجّح الرأيين وترجيحه لا وزنَ له، لأنه لا دليل له عليه/ ردُّ الباحث على رأى الدكتور صبحى/ ليس صحيحا أن «اللُّغات» العربيّة – المتزامنة – والمتتابعة، فى الجزيرة، وبلاد الشام، والعراق.. أصلها «أمٌّ» سامية/ التوراة ليست مَصدرا موثوقا وهى المصدر الوحيد الذى يذكر أن لنوح عليه السلام ثلاثة أبناء: سام – وحام – ويافث/ المصادر العربيّة التى ذكرت ذلك نقلت عن التوراة/ ١٦ – الزّعم بأن العربيّة والآرامية.. لُغتان ساميّتان – لا دليل عليه/ العُلماء الغربيّون أخرجوا الدين من تفسير ظواهر لحياة ومنها اللغة اللّاتينية – لُغة مُدوّنة.. واللُّغات المُنبثقة منها معروفة الصّلة بها/ تشابُهُ أصوات الحلق، وأصوات الإطباق فى المنطقة الجغرافية الواحدة.. أمر طبيعى/ تفوُّق العربيّة الفُصحى على أخواتها – العربيات – يدلّ على فرادتها/ الله تعالى كانت قدرته كفيلة بِجَعْلِ العربيّة الفُصحى تُخالف أخواتها. ولكن الإسلام لا يَقوم على «الطَّفرة»/ من خصائص الفُصحى، أنها إلهامية أنها مفهومة فى جميع العُصور، وستبقى/ لُغات البشر الأخرى مُتنقّلة، لأن فكر البشر متنقل، ويمكن نقله من لغة إلى أخرى/ حقائق الدين ثابتة، فهى تحتاج إلى لغة ثابتة/ ثبات اللّغة يعنى ثبات قوانينها، ولكن تطوّرها، يتم حَسَبَ قوانينها/ الدكتور حِجازى يَبسط رأى المُستشرقين، ولا رأيَ له، شأن معظم علماء العرب، فى اللّغة والنحو. وفى كلّ مجال الذين يقلدون الغَرْب/ لماذا لم

تكـن الأكّاديـة، وهى الأقدم، هى الأثبت أصواتا لأنهـا مكتوبة/ من أكبر الأدلّة تلك التى أوردناها فى (التمهيد) أنّ السّاميّة.. خُرافة، لا دليل عليها.

الموضوع الثالث

ليس هناك لغة سامية «أم» للغات المنطقة، اللغة العربية إلهامية قامت قبل الإسلام بقرنين فقط..... ٨٥

كون النبطية.. فيها بعض ألفاظ من الفُصحى لا يعنى أن الفُصحى هى الأقدم، بل العكس هو الصحيح./ كِتاب.. يَدّعى أن الإنجليزيّة مأخوذة من العربيّة. وهذا ادعاء باطل/ التّشابه بين لغتين فى منطقة جغرافية واحدة.. شيء طبيعى، ولا يعنى اشتقاق إحداهما من الأخرى/ حجـازى يتابـع – بغفلة – ما يقال من أن الفُصحى أقدم بكثير من الشـعر الجاهلى/ أين الشـعر السّـابق على الشـعر الجاهلى/ من العبث أن يُدَّعى أن أقدم النُّقوش الثمودية يؤرِّخ بالقـرن الخامس، قبل الميلاد، وأحدثها بالقـرن الرابع الميلادى/ أين الجنّات والعُيون التى يذكرها القرآن لثمود/ النّاقد ابن سلام الجمحى يُنكر على ابن اسحاق ذكر شعر لعاد، وثمود/ العربُ فى الشَّمال.. نسوا لغتهم، ولم ينسوا أسماء قبائلهم، بإرادة الله/ العرب.. كانوا يفدون إلى مكـة المكرّمة، ويتفاهمون بالفُصحى أى – بلغة واحدة/ النّتيجة.. كل ما سـبق يدحض وجـود لغة سـاميّة «أُمٌّ» للغات الجزيرة والهـلال الخصيب/ الفصحـى .. إلهام وتوقيف، ولم تنشـأ بالتواضـع/ لو تُرجم القرآن إلى عربيـة متحوّلة (لو كانـت العربية تتحول) لكان – بالترجمة – كلاما بشريا، لا قرآنا/ عدم الاختلاف فى بعض أصوات لغات المنطقة العربية لا يعنـى أنهـا من أمّ واحدة/ الاختلاف فى أداة التعريف بين هذه اللغات.. دليل على أنها ليسـت من أمّ واحدة/ الأصل الثلاثى للكلمات.. موجود فى كل لغات الدنيا/ أقدم النقوش الثمودية.. ليس يؤرخ بالقرن الخامس قبل الميلاد. بل هو قبل الميلاد. بخمسةَ عَشَرَ قرنا/ كون اللغات الصفوية والثمودية واللحيانية.. فيها أسماءٌ باللغة العربية.. لا يعنى أن الفصحى من أمٍّ سـامية. بل ذلك يرجع إلى أن الأسماء لا تتغير صورها ولو بين لغتين متباعدتين – ومن بيئتين مختلفتين/ اللهجات السـبع التى جمعت منها العربية أصلها واحد.. نشـأت بعض الفـروق فى الصوت بينها، لاختلاف البيئات/ حجـازى.. يبرر– اختلاف أدوات التعريف فـى لغات المنطقة/ العرب يقدسـون ما يأتيهم من الغـرب/ اختلاف الضمائر كاختلاف أداة التعريف/ من الأدلة على أن هذه اللغات ليست من – أمّ – واحدة.

القسم الثالث

التعرّف على عبقرية اللّغة العربيّة الفُصحى من خلال الاشتقاق وتوليد المعانى

الموضوع الأول «مثال الفعل فَرَجَ» ٩٧

العربيّة لغة العقلاء الأديب يأتى باشتقاقات لم ترد فى المعاجم/ الفَرْج/ فُروج الأرض/ الفُرجَة/ التفاريج/ الفَرْجة/. غُرَفا/ الغُرُفات/. المؤمنون المتطهّرون قلة/ الفَرْجة/ الفَرِج/ لكل الكلمات السابقة معنى مركزي/ أذِن له/ المأذون/ قوس قَزَح/ وفارج وفَريج/ أبناء يعقوب.. تخيّلوا القرية عاقلة/ فَرْجة/ فارجا/ رجل فريج وامرأة فريج/ المُفرَج/ المُفرِج/ المنفَرِجة/ المتفرِّج.

الموضوع الثانى كلمة (سَرَّ أو – سَرَرَ): ١٠٧

سرر تعنى الاختفاء وتعنى الظهور / تسارّوا/ استسرّ الهلال/ السِّرُّ/ السُّرِّيّة/ السِّريّة/ السرُّ/ السرير/ تسرَّرَ الثوب/ التضاد نوع من العلاقة/ الاشتقاق ركن أساسىّ فى تطوير اللغة.

الموضوع الثالث تحليل لغوى لكلمات ثلاث: ١١٢

لواقح/ العيشة المَرْضِيّة فيها معنى الفاعلية/ ناقة لاقح/ الرياح مُلِقحات شَمّت/ الشوامت/ السّلب/ التمريض/ تشمّت بالعدوّ/ الشعراء كانوا يجعلون الحيوان ينجو – غالبا – من الصياد/ طائح/ المطوّحات/ لم يستعمل العرب إلا الطوائح/ طائحة/ المعاجم لم تحوِ كل المشتقات.

الموضوع الرابع: مادة الفعل (عَنَدَ) تحليلها لغويا ١١٨

المشتقات من مادة لغوية واحدة ترجع إلى أصل لغوى واحد/ اللّفظة تتطور معانيها/ رجل عنيد: عاند/ صيغة المبالغة: قتّال/ العنود والعنيد/ الزكاة / والحاجب/ عنود ليست بمعنى عنيد/ تعانِدِ الخصمان/ العاند/ عَنَدتِ الطعنة/ عاند فلان فلانا/ فَتْفَتَ/ زُرْقُم/ خَرْفَنَ/ سَرْجَنَ/ لا يحوّل كل فعل ثلاثى إلى فعل رُباعي/ نَخْطا/ خَالَفَ/ لم تنمُ اللّغة نُموّا كافيا/ تطور اللّغة سرّ عجيب.

الموضوع الخامس المُقلة وتطوّرها اللغوى ١٢٩

لا يجوز الاشتقاق إلا من المصدر – عند البصريين/ الكوفيّون يرون أن الاشتقاق من الفعل/ اللّغة لم تؤيّد كِلا الرأيين/ الفعل مَقَلَ / تَمَقَّل/ اللغة تشتق من كل مادة.

الموضوع السادس تحقيق لفظ كلمة: (أَبَيْنُها) ١٣١

الأورای/ أبَيْنُها/ يَمَشّـــى/ يُمَشَّيُ/ تَشَـقّقُ/ حذف التاء فى كلام البشر جائز. وفى كلام الله واجب/ الفرق بين – تَشَقّقُ وتتشقّقُ.

القسم الرابع:

الموضوع الأول: اللغة العربيّة الفصحى والتعريب والنظر المعاصر فيها ١٣٦

تمهيد (نظرات فى اللّغة)

لم نـدرس كتاب سـيبَوْيهِ، فى المراحـل الجامعية كلها/ تجـاوَزَ الكُتّابُ بعض قضايا سـيبويه/ كيف ننسـب إلى (اثنى عَشَرَية)/ هذا شاة/ وهذه شاة/ ثلاثة أنفس/ يعامل المذكر معاملة المؤنث إذا تضمّن معناه/ حَلُّ إشكال لغوى/ التوسعة فى اللّغة/ ثلاثة موضوعات وهل يصح ثلاث موضوعات؟/ مادة (عَيَنَ) مادة (بعض)/ يمكن (بعض والبعض).

الموضوع الثانى اللّغة العربيّة والتعريب (فى العصر الحاضر) مناقشة أفكار فى الكتاب..... ١٤٢

اللّغة أم التفكير/ اجتازت اللّغة امتحانا صعبا فى العصر العباسـي/ تَوَسُّعُ الكوفيين فى القياس/ النّسبة إلى – شَنُوءَة–/ فَعولة – ينسب إليها على – فَعولىّ–/ ربيعة رَبَعيّ. ولكن طبيعة طبيعيّ/ وَقْفُ القياس على الأغلب خطأ/ المحسوس يسبق المعنوي/ مراحل التطور/ اللّهجات تنشأ عن لغة أُمّ/ ليس صحيحا أن ليست هناك لُغة أفضل من لُغة/ لغات الأنبياء ليست فقيرة/ الدين.. تعبر عن مفرداته لغة متوسطة الثروة اللغوية/ حروف الهجاء ليست متسـاوية فى اللُّغات/ التفاضُـل يرجع إلى التركيب/ الفرق بين جَـرْسِ الكلمات/ أصوات الحروف قليلة القيمة وهى مفرقة/ اللّغة اليونانية ذات إمكانيات كبيرة/ فندريس يرى هوة بين الحرف والصوت فى الفرنسـية والإنجليزية/ العربيّة متفوقة/ فى: الإملاء، الاشتقاق، الميـزان الصرفى، أوزان العربيّة أكثر انضباطا من أوزان الإنجليزية/ الاشـتقاق فى العربيّة أجود منه فى الإنجليزيّة/ اللُّغات تتفاوت.

الموضوع الثالث العربيـة والتعريـب فـى العصـر الحديـث:..... ١٥٧

الأساليب المشرقة تتفاوت / نظرا لما نعول عليه/ اللغة ليست أداة– للتعبير– فحسْب/ اللغة مِطواع/ اللغات تتفاضل/ العربية لغة الاشـتقاق/ الإنجليزية غير قادرة على مجارات

العربيــة.. أمثلة: الفعل (كتب) فى العربية والإنجليزيــة/ العربية ذات مرونة فى التعبير عالية/ مثال مكون من جملة – مســتخدمة الوســائل نفســها/ بذرائع شتى/ عملية دؤوب/ طالما – فى موقعها غير صحيحة/ ســوف لا – يســتدّ مسدّها (لن)/ بصورة رئيسية (وليس رئيســة) / الرئيسى والرئيســية للعاقل/ ولبعض الأحياء الأخرى/ أخطاء عَشَرَةٌ يُقصد منها أن يُفيد منها الشباب.

الموضوع الرابــع الفُصحى والحضارة وجريدة الرأى:.....١٦٦

الفُصحى والعاميات/ ليست اللّغة العربيّة صعبة/ اللّغة الإنجليزيّة يُلْحَنُ فيها/ التركيب فى العربيّة أبســط من التركيب فى الانجليزيّة/ الإعراب ميّزة للعربيّة/ ما مصير القرآن اذا استخدم الناس العاميات/ القرآن يجب أن يظلّ بلغة حيّة/ القرآن كتاب حياة/ معانيه تترجم الى اللُّغــات الأخرى/ العاميّات، اذا أريد لها الثّبات، أصبحت صعبة/ اللُّغات المُنبثقة عن اليونانيّة أصبحت صعبة وذات نحوٍ/ العربيّة بخير/ العامّة لا تفرق بين لغة العلم ولغة الأدب.

الموضــوع الخامــس الخطـأ والصــواب، والاجتهــاد فــى اللّغــة:.....١٧٢

لم أقل، ولا مرّة أننى الحَكَمُ الفَصْلُ فى الاجتهاد فى اللّغة/ والباحث (وأقصد نفســى) لا يبتســر القول فى اللّغة، بل منهجه/ الاستشــهاد بآراء الكوفيين، أحيانا، لا يعنى إلغاء النحو البصرى، بَيْدَ أنى أرى أن «رُؤية» الكوفيين – أســلم من رؤية البصريين/ الصفة على وزن (فَعــلان) يأتى مؤنثها أحيانا علــى وزن (فَعْلانة) وهذه عندى.. قاعدة يقاس عليها/ لا يجوز لأحد أن ينكر على أحد الأخذ بمنهج الكوفيين، أو منهج البصريين، وإنما يجوز له أن يناقش أفكاره وأدلته/ هَدْمُ قاعدة إملائية.. لبناء ما هو أقرب منها إلى طبيعة أصوات اللّغة، وأقرب إلى التيسير.. مطلب بل واجب / رسولنا صلى الله عليه وسلم كان يأخذ بالأيسر، إذا كان حقّا/ الإملاء.. ليس مقدّسا، وأَصَحُّهُ ما وافق أصوات حروف الكلمة، مع اعتبار المعنى/ الآراء الفرديّة.. يجب أن يّفسح لها المجال للظُّهور/ والمجامع هى التى تُقِرُّ أو تطرّح/ ليس هناك إجماع فى اللّغة، أو فى الفقه. (لســان العرب) ملىء بالمُخالفات، وكذلك كتب الفقه/ ما يسعى إليه الباحث، ويعتبره من الدين، كما اعتبره الثعالبى، فى مطلع كتابه (فقه اللّغة) – هو الحِفاظ على الفُصحى، وتنميتها، لأنها لغة خالدة، لكتاب خالد/ مقالاتى اللّغوية فى جريدة (الدستور) أطراها عالم لُغوى جليل، هو الدكتور ناصر الدين الأسد.

الموضوع السادس اللغة العربيّة والمُعاصرة – (العربيّة.. أدقّ اللُغات، بيانا).....١٨٠

أربع مُلاحظات عن ما دار فى حلقة تلفازية، تفرّعت الى ثمانى نقاط هى:

(أ) كل اللُّغات فيها القدرة على التعبير عن مشاعر الإنسان، وأحاسيسه، ولكن العربيّة أعلاها كعبا/ (ب) فالعربيّة.. لغة الاشتقاق، وليس اللُغات أخرى يشتق منها بنفس النسبة/ (ت) مُرونة العربيّة، فى التقديم والتأخير، حسب ترتيب المعانى فى النفس، لا تدانيها فيها – لُغة أخرى/ (ث) ليس من لُغة فى الدنيا تستطيع أن تُترجِمَ نَصّا «شعريا» على مستوى لغته الأصليّة، فكيف بترجمة القرآن. إن هذا ليس نقصا فى اللُغات – وإن كانت قاصرة كلها عن العربيّة. وإنما لاستحالة تقمّص أحاسيس الشعر الأصلى، أو الإحساس بنفس ما أحسّ به/ (ج) ولذا.. المواد العلمية، والفكريّة.. يمكن ترجمتها، خلافا للأدب/ (ح) كل حضارة.. لها فِكرها/ (خ) الملامح المشتركة بين الحضارات هى القاسم المشترك فى الطبيعة الإنسانيّة/ (د) هناك ملامح مُشتركة بين الاقتصاد الإسلامى الزّكَويّ، والاقتصاد الشيوعى الاشتراكى. مع وجود الفرق الهائل بين العقيدة الإسلامية والشيوعية المُلحدة.

الموضوع السابع اللغة العربية والعشوائيات العربية.....١٨٦

تمهيد قرأت فى مجلة العربى موضوعا عن اللغة الفصحى/ اقتراحات للحفاظ على الفصحى/ العشوائيات العربية/ حاكم يبنى عاصمة عشوائيا تضم كل ما تضمه العاصمة التى لها مخطط شمولى لكن العاصمة العشوائية تقصر عن تأدية أهدافها.. مقترحات الدكتور إبراهيم كهذه المدينة العشوائية لكى تنجح الاقتراحات اللغوية لابد من أن تنضوى تحت مخطط شامل والمخطط الشامل يعنى أن تتكامل الدول العربية العشوائيات بكيان واحد/ عند إذن لا يصبح العربى يفتخر باللغات الأجنبية/ لا خوف على العربية الفصحى لو كانت العربية فيها جراثيم الانقراض لانقرضت فى عصور الانحطاط، أو زمن الأتراك الاستعمار الجديد حاول أن يغلب العاميات على الفصحى .. فلم يفلح/ العربية عصية على الزوال/ القرآن .. حافظ للعربية الفصحى/ العربية إلْهامية، جذورها غير قابلة للزوال/ عاشت سبعةَ عشرَ قرنا حية، ولم تعش مثلها لغة أخرى/ تجاوزت الفصحى المحن، وأصبحت إحدى اللغات العالمية.

الخلاصة

الموضـوع الثامن الألفاظ الاصطلاحية الشـرعية فى القـرآن الكريم وهل حدث لها تطور دلالى؟.....١٩٢

اعتمد الكاتب على ما فى المعاجم والشـعر من ألفاظ لها وجه شـرعى/ تحليل الكاتب للصلاة/ لم يكن تحليله كافيا/ قفز إلى معناها قفزا/ الصلاة من الصلا/ والصلا يتبادل المعنى مع (وصل)/ الصلاة معناها: الصلة بالدعاء.

الموضوع التاسع أحقًا أن القرآن الكريم.. أُنزل باللغة العربية الفصحى؟.....١٩٨

لم أجدنى مُرتاحا إلى القول بأن القرآن.. أنزل بالعربية/ القرآن لم تتطوّر لغته من الشعر الجاهلـي/ كلام الله ليـس ألفاظا متفرقة/ القرآن، ألفاظه تماثلهـا ألفاظ فى العربية/ نحن نتجـوّز عندما نقول (ألفاظ القـرآن)/ الخليفة عثمان ليس صاحب نظـرة تحليلية للقرآن/ القرآن «فصيح مئة بالمئة– أما اللغة ففصيحة لفصيحة بنسـبة (٩٥٪)/ الله قديم، وكلامه صفـة من صفاته، وصفاته قديمة. فكلامه قديم/ عبـارة (قرآنا عربيا) أى – قرآنا فصيحا (وليس منسـوبا إلى الشـعب العربى) / ما دليل أن كلمة (عربى) تعنى فصيحا؟ / عربى... لها عِدّة معانٍ هى سبعة معانٍ/ هذه المعانى السبعة تُرَدُّ إلى معنى الفَصاحة/ من أين جاءت كلمة (عَرَب)؟/ جاءت من (عَبَرَ) بعد – تقليب حروفها– كلُّ معانى (عَرَبَ – أو – عَبَرَ) تعود إلى المعنى الأصلى، وهو (الفصاحة).

الخاتمـة:.....٢١١

وهى إشارة لمّاعة، ليس أكثر، لما احتواه الكتاب.

المراجع.....٢١٣

الفهـرس.....٢١٥

مؤسسة
دار المعارف
قطاع التسويق وتنظيم المعارض

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
القاهرة	الإدارة والمكتبات	٩ شارع كامل صدقى بالفجالة	٢٥٩٠٥٩٤٨	٢٥٩٠١٧٦٦
	مكتبة ثروت	٢٧ شارع عبد الخالق ثروت	٢٣٩٣٦١٢٣	٢٣٩٣٦١٢٣
	مكتبة السيدة زينب	ميدان السيدة زينب ناصية شارع قدرى	٢٣٩١٣٨١٣	
	مكتبة شبرا	١٠٥ شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية	٢٢٠٢٣٨٦٦	
	مكتبة ماسبيرو	خلف دار المعارف ومجلة أكتوبر	٢٥٧٧٠٧٧	
الإسكندرية	مكتبة سعد زغلول	٤٢ شارع سعد زغلول	٠٣/٤٨٠٧٦٤٤ ٠٣/٤٨٠١٣٤٥	٠٣/٤٨٠٧٧٣٨
	مكتبة التحرير	٢ ميدان التحرير بالمنشية	٠٣/ ٤٨٧٩٩٥٣	
	مكتبة محرم بك	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	جهاز المعارض بالإسكندرية	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
طنطا	المكتبة	خلف مسرح البلدية شارع القنطرة	٠٤٠/٣٣٣٢٣٥١	
المنصورة	المكتبة	شارع الجمهورية بجوار إدارة جامعة المنصورة	٠٥٠/ ٢٣٩٦٢٨٧	
الإسماعيلية	المكتبة	بجوار نادى الشجرة – شارع شبين الكوم	٠٦٤/ ٣٣٤٦١٩٢	
الزقازيق	مكتبة المنتزه	ميدان المنتزه – بالزقازيق	٠٥٥/ ٢٣٠٥٠٢٢	
	مكتبة عرابى	ميدان أحمد عرابى سابقا	٠٥٥/ ٢٣٦٥٠٢٢	

OBEIKANDL.COM

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
العريش	المكتبة	شارع الجيش أمام قسم العريش	٠٦٨/ ٣٣٦١٨٩٠	
السويس	المكتبة	سوق فيصل السياحى- حى فيصل	٠٦٢/ ٣٦٧٢٩٦٦	
أسيوط	أسيوط	شارع جلال الدين السيوطى	٠٨٨/ ٢٣٣٤٥٠٤	
	منطقة أسيوط الجديدة	عمارة الأوقاف رقم ٢ ش سعد زغلول	٠٨٨/ ٢٣٣٠٠٠٨	
سوهاج	الإدارة العامة والحسابات	خلف الساحة الشعبية بجوار قصر الثقافة	٠٩٣/ ٢٣٢٤٣٤٧	
قنا	الإدارة والمكتبة	شارع الجميل	٠٩٦/ ٥٣٢٣٢٣٠	
أسوان	الإدارة والمكتبة	السوق السياحى	٠٩٧/ ٢٣٠٣٨٣١	

obeikandl.com